مملكة الليل

ديوان شعر



الدكتور حامد طاهر

اسم الكتاب : مملكة الليل

اسم الدكتور : حامد طاهر

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

رقم الإيداع : ٨٢٩١ / ٢٠١٦

در الهاني للطباعة - القاهرة

٠١١١٩٠٩١١٢٥

تقديم

أعود مرة أخرى إلى هواى القديم ، فأنشر ديوانا جديدا ، سبق أن وضعت الكثير منه على (الفيس بوك) ، حيث تواصل معه العديد من الأصدّقاء والقراء ، ولعل هذا ما شجعنى على أن أجمع معظم ما نشرته الكترونيا لكى يستقر فى كتاب ورقى .

هذا الديوان يضم عدة تجارب شعرية ، بعضها قصائد من الشعر الحر والعمودى ، وبعضها الآخر من قصائد النثر ، وبعضها الثالث قصص شعرية ، وهى جنس أدبى جديد يقوم على المزج بين القصة والشعر ، وقد كتبت منه عدة نماذج يجدها من يريد بموقعى على الإنترنت .

وبالطبع فإن أى ديوان يظهر إنما يتجه إلى فئتين : الأولى فئة القراء الذين يحبون الشعر ، والثانية فئة النقاد الذين يفحصونه ويقيّمونه ومع أننى حريص على إرضاء الفئتين فلا أطمع أبدا فى إرضائهما جميعا ، وكل ما أتمناه أن أرضى بعضهما فقط . وقديما نصحنا ابن حزم الأندلسى قائلا بأن إرضاء الناس جميعا غاية لا تدرك .. فعليك برضا العقلاء منهم فقط .

إننى أنشر هذا الديوان بعنوان إحدى قصائده (مملكة الليل) فى سنة 2016 وقد تجاوزت السبعين ، فى حين أن أول ديوان نشرته كان فى سنة 1984 ، وكان عمرى حينئذ حوالى الأربعين . وبين هذيْن التاريخيْن نشرت أحد عشرة ديوانا . وهذا يدل علأننى منذ بدأت كتابة الشعر فى أوائل

الستينيات لم أهجره حتى اليوم .كما أن دراستى الأكاديمية للفلسفة كانت رافدا مهما لى سواء فى نظرتى إلى الشعر ، أو فى تعاملى المباشر معه .

لقد أدركت بعد طول التجارب مع الشعر أنه لا ينحصر فقط فى الشعر العمودى القائم على وحدة القافية أو تعددها ، ولا فى شعر التفعيلة الملتزم بالوزن والمحرر من وحدة القافية فحسب ، بل إنه يتجاوز هذا وذاك ـ دون أن يستبعدهما ـ إلى أساليب أخرى ، منها قصيدة النثر بشرط أن تكون محكمة البناء ، والقصة الشعرية التى دعوت إليها على الرغم من إدراكى لصعوبتها.

وإذا كان هذا قد يبدو غريبا على قارئ اليوم ، أو يزعج بعض النقاد ، فإننى أشير إلى الصورة الشعرية المتحركة التى تظهر فى السينما والتلفزيون وتحدث فى نفوس المشاهدين تأثيرا وجدانيا قد يدفعهم أحيانا إلى البكاء ، دون أن يتفوه الممثلون بكلمة واحدة من كلمات اللغة .

وهكذا فإننى أتصور أن مفهوم الشعر ينبغى أن يتسع ومتد ليشمل أساليب أكثر مما تعودنا عليها ، وأن يرتاد آفاقا أرحب مما نظل نحبس مشاعرنا فيها حتى الآن فى عصر(الصورة) التى بدأت بالفعل تزيح (الكلمة) عن عرشها التقليدى . والتطورات تدهشنا كل يوم بل كل لحظة بشىء جديد. وأعتقد أنه لاأحد يمكنه أن يتنبأ بما سوف يحمله الغد من مفاجآت أخرى.

إبريل 2016 حامد طاهر

قصائد شعر حر وعمودي

عودة النبض

أتساءل :
كيف عادت نبضة الحب
إلى القلب الحزين ؟!
كان قد كفّنه الصمت سنينا،
وسنين
وتناسى الوصل ، والهجر ،
وأيام الحنين!

* *

كان مدفوعا بشىء لا يقاوَمْ
حينما شدته عينان وثغر وجبين
وأحاديث كثيرة
عن هموم اليوم ،
والأمس الذى ولّى ،
وأحلام الغد المفروش بالورد ،
وأشواق اللقاءْ

* *

كانت الدنيا نسيما ،
وعطورا ، ومرايا
وطريقا تصعد الأشجار فيه للسماءْ
ومشينا
وتعبنا
وجلسنا

ساعة تعلو على أجمل ساعات الزمانْ

* *

غير أن الأفق داز

فافترقنا

طائريْن افترقا

عاشقيْن احترقا

وطوى الحب الذى كان

عطا ش فى الصحارى ،

وانسحاق فى البحاز

* *

رجع القلب إلى مكمنه..

ومشى الصمت بأركان المكانْ

وتلاشت ضحكة القلب من الصدر

وما عادت دموع العين تهمى..

مثلما النهر الذى جفّ ،

وما عادت به قطرة ماءْ

صارت الدنيا خواءْ

* *

غير أنى أتساءل :

ما الذى أرجع هذا النبض

فى القلب الحزينْ ؟

أنت . .

أم الروح الذى أطلق فيه الياسمين

عندما قلت : أحبك

عندما قلت : أحبكْ
لم تقولى أى شىءْ
كان صمتا رائعا
وسكوتا لا يدانيه كـــلامْ

* *

عندما قلت : أحبكْ
كانت الدنيا شتاء
وتدفأنا بتلك النظراتْ
حملتنا لبحور وصحارى
رفعتنا لنجوم وكواكبْ
أبعدتنا عن محيط الكون ،
صرنا ذرتينْ
نتلاقى .. نتماوجْ
فى فضاء لانهائىّ ، فسيـــخ

* *

عندما قلت : أحبكْ
لم تقولى أى شيءْ
إنما عينك قالت ..
وعلى كفك حطت راحتى
حينها أدركت أن البدر مقسوم لنا
وشعاع الشمس لم يوجد

لمخلوق سوانا
ونسيم البحر ،
والأطيار ،
وموسيقى الحياه
صدحت من أجلنا

* *

عندما قلت : أحبكْ
كان سر فى الحنايا
ينشد الإفصاح عما يحتويهْ
مثلما البركان فى أعلى الجبلْ
حينما يملأ بالنار حشاهْ
ثم يلقى بشظاياها بعيدا ..
قلتها فى لحظة
لا أعرف : كيف ؟
ولكنى استرحتْ
حين شعّ النور من طرف شفاهكْ
واختلاجات جفونكْ

* *

حينما قلت : أحبكْ
كانت اللحظة أغلى
من سنين العمر كلهْ
كان شيئا كانبثاق الروح
فى هذا الجسدْ

وازدهى الأفق بألوان قزح
واختفى الحزن من القلب
الذى عانى طويلا ..
كان شيئا مستحيلا

أجمل لحظات الحب

هى تلك النظرة من أعماق العينين

إذا ما صعدت من شريان القلب المولودْ

هى تلك اللمسة

حين تكون بلا هدف مقصود

هى تلك الساعات من الصمت الممتدّ

بلا شط وحدودْ

هى تلك الأغنية الصادحة

على نغمات العودْ

هى تلك الأشواق الظمأى من غير وعودْ

هى حين يكون لقاء يعطى ، ويجودْ

او حين يكون وداع من غير شهودْ

أجمل لحظات الحب سويعات

لا تحسب من ساعات الزمن المعهودْ

يصنعها العشاق لأنفسهم

فوق سهول البحر

وتحت سحاب شفّافْ

لا يخفق فيه طير

أو تعبره طائرة

بل نسمات وادعة ، وعرائس أطيافْ

ـ كيف يحس العشاق ؟

ـ مشاعر لا يعرفها أحد لم يعشق من قبل

ولا تقدر أن ترصدها الآوصافْ

أجمل لحظات الحب

تشابه بعض فراشات

تتطاير حول فتيل المصباحْ

وتظل تدور ..

إلى أن يجذبها النور

فتدخل فيه صادحة بالأفراحْ

أما نحن ..

فنحسب أن المسكينة ذهبت للموت ،

وضحّت بجناحيها دون نواحْ !

لكن الجذبة للنور

هى المقدور

استحسنها فتخيرها

كى تصبح زيتا للمصباحْ !

الابتسامة

الابتسامه
إنها أجمل خلق الله
فى وجه مضىء
حين يفتر عن الرقة والإحسان
من قلب برىء
وهى النافذة الكبرى على الروح
التى تفتح أفاق اللقاء

* *

الابتسامه
أروع الأصوات من غير كلام
خير ما تعطيه أم .. لبنيها
نفحة الحب التى تنساب
من وجه حبيب لحبيب

* *

الابتسامه
لحظة تعلو على كل الزمان
وانفراج النور من قلب الظلام
وغدير يملأ الصدر انشراحا ،
وحنانا ، وسلام

* *

الابتسامه
وردة تنشر فى الجو شذاها
وغدير يتهادى وسط صحراء الكآبه

وسنا برق لطيف
يجعل الأفق مضيئا
تصدح الأفراح فيه ، والعرائس
* *
الابتسامه
قد تكون الخنجر المسموم
فى سحنة خائن
قد تكون الحبل يلتف على الصدر
ويغتال البراءة
قد تكون الفخ منصوبا
لمخدوع يتهاوى فى خطاه
* *
الابتسامه
احذروها عندما يطلقها
وجه غضوب
وارفضوها
من فم ، مر الصداقات ، كذوب
واهربوا منها إذا ما ارتسمت
فى ثغر حسناء لعوب

—

مملكة الليل

إن كان سائر النهار لكْ
فالليل لى ..
أغوص فى أعماقه
وأرتوى من صمته
وأمتلكْ
أشعة البدر
التى ترش ضوءها
على ستائر الفلكْ
* *
الليل لى ..
حين ينام الكون كله
ولا يكون ساهرا سواىْ
أىّ حديث رائع
أبدأه مع الصدى
أقيمه مع السكون
أذكر فيه الموت والحياةْ
وهذه الشفاهْ
حين تكون تارة كالشهد خالصا ،
وتارة تكون منبع السمومْ ؟!
وكيف يهبط الأسى
على الذن افترقوا ،
وتثقل الهموم ؟!

الليل لى ..

فى وحدتى المقدسهْ

حين تكون شدة الظلام مؤنسهْ

من بعد ما عانيت طول اليومْ

فى ملتقى النسور والغربانْ

وقسمة اللصوص والقراصنهْ

وهوس القمار والمراهنهْ

أحاول النسيانْ

وأشجب المكان والزمانْ

وهذه الأجساد عندما تمارس العناقْ

وتحت جلدها ينسل عقرب النفاقْ!

* *

إن كان سائر النهار لكْ

فالليل لى ..

مملكتى

محيط سلطتى التى

أقيم فيها ما أريد من قصورْ

أدير فيها ما أشاء من أمورْ

كأننى أميرْ

وكل أشباح الظلام تحت سطوتى

تطيعنى .. ترهبنى !

حتى إذا أتى الصباح

عدت من جديدْ

أسوق زورقى القديم
نحو شاطئ بعيد..

نيرفـانـا

أعود إليك
بعد تغربى فى الليل
والأشباح تتبعنى بكل مكان

***

أعود إليك
بعد تقاذف الأمواج
والريح التى تعوى ،
ورغم تشابه الشطآن

***

أعود إليك
بعد تسلقى قمم المحال ،
ورغبتى فى الفوز بالمجهول
والدنيا بغير أمان

***

أعود إليك منكسرا
وقد كفنت آمالى بأوراق الخريف

ولم يعد فى القلب متسع
لذكرى أو لنسيان

***

وها .. مرت سنين العمر مسرعة
ولم تترك سوى أثر طفيف
لم تعد تبدو ملامحه على الجدران

***

وحين يلوح وجه من رؤى الماضى
يحاول أن يذكرنى
أقاومه ..
وأمضى صافى الوجدان

***

تشبهنى ؟
أنا فى البحر أشبه موجة
تعلو وتهبط دونما فوران
أنا فى الليل مثل فراشة
تهفو لمصباح بلا لمعان
أنا فى البيد موال لراع
بددته الريح فى أفق بلا آذان

وها أنا قد أتيت إليك مفتقرا أدق الباب

ومِلء حقائبى قصص وأعذار

وألف كتاب

لنقرأها معا..

من غير أن ندعو لها أحدا

من الأصحاب!

كل شىء يتغير

كل شىء يتغيز
موجةُ البحر التى كانت تلاقينى
بشوق واصطخابْ
لوعة الحب التى كنت أعانيها ،
وآمالُ الشبابْ!
ووجوه الصحبِ..
لم يبق من الصحب
سوى بعض شجونٍ وسرابْ
والليالى نفُسها صارت كئيباتٍ
ودفء الحلم ذابْ

—

كل شىء يتغيز
الأناشيد التى كانت تشد العزم ،
فى القلب الفتىّْ
أصبحت رجع أنين متهالكْ
يتلوى وقعها فى أذنىّْ!
والأغانى حين كانت تملأ الآفاقَ ،
تروى عطش العشاق بالصوت الندىّْ
لم تعد إلا بقايا زفراتٍ ..
من حُداء بدوىّْ!

—

كل شىء يتغيرْ
نكهةُ الخبز ، وطعمُ الشاى ،
أثناء الفطوز
وعناوِيُن الجريدةْ
أصبحت محض خرافات من الماضى ،
وما عادت جديدةْ
صدئتْ كل الأوانى ،
وسعى النمل بأركان المكانْ
وعلى المرآة بعضُ الذكرياتْ
كلها كانت حياةْ
ثم ماتت ..
مثلما الاحساس ماتْ!

كل شىء يتغيرْ
هذه الألوان كانت ناصعاتْ
وخدود الورد كانت ناضراتْ
وصفير البلبل الغرّيد منسابًا
على كل الجهاتْ
صارت الألوان أبهتْ
وخدود الورد جف الماء منها ،
ومشى فيها الذبولْ
هجر البلبلُ عشَّهْ
واختفى قبل المساءْ

وأتى من جانب التل صراخ ،
ونباحٌ ، وثُغاءٌ !

كل شىء يتغير
حدّة الإبصار فى عينى ،
وأسماءُ الشخوصْ
قوة الإعصار فى صدرى ،
وميْلى للصراعْ
صبوتى ، نوْع طعامى ،
وخطاىَ المسرعة
صرتُ لا أعرفُ إلا أن أقاتل..
رغبتى حين تحاولْ!
وأنا فى الأرض مشدودٌ بآلاف السلاسلْ

—

كل شىء يتغير
موعد النهر الذى كان وفيا
والفصول الأربعة
لم تعد عادلة فى قسمها..
أصبح الصيف طويلاً ، وثقيلا
وخلا الحقلُ من الظل المندّى بالنسائمْ
بعدما غطت محياه الأخاديُد العميقة
وسمعنا أن ثلج القطب ذابْ

سحقته الشمس .. فيما بين بعد واقترابْ

—

كل شىء يتغيرْ
وأنا أجتر أيامى التى راحت هباءَ
عثراتٍ ، وانتظارا ، واندفاعا ، واحتماءَ..
كيف لم أدرك دروب الغاب من حولى ،
وأخلاق الضباعْ ؟!
كيف لم أعرف بأن الصاحب الموثوق .. باعْ ؟!
كيف لم أشعر بأن العمر يجرى مثلما النهر ،
وما فيه ارتجاعْ ؟!

—

هذه اللحظة كانت فاصلهْ
رحّبت بالأرض أبوابُ السماءْ
حذرتنى قائلهْ:
إن فى الليل شياطينَ كثيرهْ
وكذا طولَ النهارْ!
فتحت عينى على وجهٍ حقيقىّ ،
ووجه مستعارْ!
ميّزت فى شاطئ البحر أمامى..
كلَّ أنواع المحارْ
لم يعد يهتز عقلى..
بين شك وضياعْ
صار ضوءُ الحق أنصعْ

واختفى الباطل فى تلك البقاغ ..

.. .. ..

هكذا أصبحتُ انسانا جديدا ،
وفريدا..
غير أن العمر ضاغ
!

الوجـــوه

وجه ضاحكْ

وجه عابسْ

وجه محزون أبدا

وجه ماكرْ

وجه عذبٌ .. وجه مالحْ

وجه من غير ملامحْ

وجه يتحول فى أشكال أخرى..

وجه يُسفر عما يحمله من إحساسْ

وجه يتخفّى حتى لايدركه الناسْ

وجه كالذهب الخالصْ

وجه مطلىّ بنحاسْ

وجه لا تنساه طوال العمرْ

وجه حين تفارقه يسقط من ذاكرتكْ

وجه يجعلك تبوح إليه باسراركْ

وجه تخشى أن تخبره عما يحدث فى داركْ

وجه تتمنى ألا تلقاهْ

وجه تدعو الله .. لكى تلقاهْ

وجه يسرى فى الحلم فتسعدك رؤاهْ

وجه تلقيه الريح عليك ،

فتقضى طول اليوم حزينا من مرآهْ

* *

الأوجه فى كل مكانْ

تسبح فى الجو ،

وتمرق فى الماء ،

وتدلف من كل الأبوابْ

تتحدّانا ، تحصرنا ، وتراوغنا ..

حتى لاندرى أىّ الوجهين : الصادقَ والكذّابْ ؟

من منا يقدر أن يستكشف ما فيها ،

مَنْ أغوار مظلمة ، وضبابْ

بعض ملامحها حُفَر ، وفخاخ ، وسرابْ

أطيافَ ملائكة تبدو أحيانا،

وتكشر فى أحيان أخرى ، مثل شياطين ،

تتلوى فى السقف ، وفوق الجدرانْ !

* *

الأوجه أقنعة مختلفات الألوانْ

صفراء ، وحمراء ، وزرقاء ..

يلبسها كلٌّ منا طول اليومْ

يستبدلها عشرات المراتْ

ينزعها عند النومْ

لكن الأجرأ من يصحو فى قلب الليل ،

وينظر فى المرآة

منزوع الأقنعة كما صوره الله !

مَنْ منا يقدر أن يتأمل فى وجهه

يصفعه إن كان مدانا ،

ويعاتبه ان همَّ بشرٍّ ،

ويصارحه وجها وجها ..

مَنْ منا يقدر أن يتخلص من أقنعتِهْ !

الصـدور

صدر مفتوح كالبحرْ

صدر كالقبو المغلقْ

لا توجد فيه فتحات مثل القبرْ

صدر تسمع منه الآهاتْ

صدر تتلوّى فيه الحيّاتْ

صدر يزخر بالعطف على المسكينْ

صدر تُشحذ فيه السكينْ

صدر لا يدع صديقا يقرب من أسوارِهْ

صدر يدعو الناس جميعا ..

لزيارة دارِهْ

* *

الصدر جدار ملتف ،

يبنيه الانسان دفاعا عن قلبه

ويظل يُحصّنه ..

حتى لا يتمكن أحد من أن يطّلع عليهْ

وهنالك من يجعل فيه مزاغل ..

ليراقب منها المتلصص ، والهجام ، وملتقطى الأخبار

الصدر جدارْ

قد تُقذف منه الأحجار ،

وقد تتمدد فوق حوافيــه الأزهـاز

* *

ماذا خلف جدار الصدر،

سوى أرض جرداء ، وبعض الصبّاز

ومساكن هُجرت من زمن ،

عشّش فيها البومُ،

وعاثت تحت سلالمها الفئرانْ

آثار هزائم غطاها الرمل ،

وما زالت صامدة ضد رياح النسيانْ !

* *

قالت – وانحدرت من عينيها

دمعاتٌ ساخنة فوق الخدينْ :

لا يوجد صدر خال من أظفار الغدز

وسواء كان امرأة أو رجلا ..

فالغدر هو الغدز !

لكن الأقسى أن يغدر من نمنحهُ

مفتاح القلب ليسكن فيهِ ،

فيمزقه بالخنجز !

* *

وسرى من أعماق السجن أنينٌ مكتومْ..

أقسم : لا يوجد فى الصدر سوى أشواك الحقد ،

ونيران الحسد المشئومْ

كان صديقى أقرب لى منّى ..

وأمام القاضى ، بث شهادته سمّا فى أوردتى

ألقانى خلف القضبان ،

وأحدق بالثروة والزوجة والأولادْ !

* *

وهنالك حول ضريح القطبْ

صاح الدرويش الهائم :

لا يوجد صدر خالٍ ،

من حب الله ومن أنفاس القربْ

وقبيل الموت بخطواتْ

قد يشرق صدر العاصى بالتوبهْ

ويفيض الإيمان على القلبْ

* *

لكن الصدر الأدفأ فى العالم ..

هو صدر الأمّْ

يسقينا لبن طفولتنا ،

ويهدهدنا ،

وننام عليه ونحلُمْ

فإذا ما بعدت عنه زوارقنا ،

ورمتنا الدنيا فى مدن أخرى

حيث البردُ القارس ، والناسُ ..

جئناهُ ، فوجدناهُ مفتوح الأذرع ،

يتلقّانا بمزيد من وَهَج الإحساسْ !

الحب فى الميدان

كان الطوفانْ

يتدافع فى قلب الميدانْ

وشعارات الحرية تصدح فى كل الاركانْ

وعيون الثوار.. كما فتحاتِ البركانْ

كان الصوت الخارج من أعماق الشبانْ

يندفع فيكسر كل متاريس القهر ،

ويبعث جثث الموتى من تحت الأكفان

* *

وعلى خطوات منّى ..

كانت تحمل علما خفاق الألوانْ

كانت تهتف ، لكن الصوت الصادر عنها

كان كصوت البلبل حين يغرد بين الأغصانْ

وبعينيها كان بريق الحسن

يفوق الغضب الهادر منها ،

وعلى خديها امتزجت حبات العرق بأوراق الورد ،

وثار الشعر ، فنفرت منه خصلات في لون الليل ،

على صبح زاهٍ ، فتانْ !

تبعتها صرخاتُ هتافى ..

التفتتْ ، نظرتْ ،

علمتْ أنى افديها بالروح .. كما الأوطانْ !

تركتنى أقتسم العلَم المرفوع بيدها ،

وأشاطرها الغضْبة والغليانْ

وهناك بجوف القصر اختار الماكر أن يكذب ويناور ..

حتى اهتزت حول قوائمه الجدرانْ

وشهدنا أروع لحظات العمر : سقوطَ الطغيانْ !

طرنا من عمق الفرحة ، هنأنا أنفسنا بالأحضانْ ..

كانت كالعصفور الوادع فى صدرى ،

تسكن حينا ،

وتزقزق حينا فى اطمئنانْ

لكن ما لبثت أن فاقت من غفوتها ..

رجعتْ للخلف قليلا ،

ثم ابتعدت فى قلب الميدانْ

تابعتُ خطاها .. لم تتوقفْ ..

ذابت كالقطرة فى الطوفانْ

كنت سعيدا وحزينا ،

أضحك ، أبكى ..

وعلى كتفى ربتت آلاف الأيدى ،

قالوا : جذبته الفرحةُ ،

رشوا الماء على وجهى ،

وأعادونى للبيت ،

جلستُ بلا قلب:

يتنازعنى الشوق اليها ،

وأفكر فيما ينتظر الأوطانْ !

أحبك يا مصر ..

أحبك يا مصر رغم السكوت

أحبك .. حتى أموت

***

أحب صباحك حين يرش الحقول ،

وليلك حين يضم البيوت

***

أحبك حين تزغرد فلاحتك

وحين تدارين دمعك فى لحظة الحزن

عن شامت يبغضك

***

أحبك يا مصر حبا

تمكن فى القلب مثل ثبات الهرم

ومثل المآذن صاعدة للسماء

تسوق الدعاء ، وتبدى الندم

ومثل الكنائس ،

حين تفضفض أجراسها بالألم

أحبك يا مصر فى النيل ،

حين يهل علينا

فيروى العطاش ، ويغذو الجياع

وحين يريح الرعاة ظهورهمو فى حماه
يطيب الغناء ، ويحلو السماع !

***

أحبك يامصر
بعد حلول المآسى ،
وأنت تقومين كى تستعيدى قواك
وتنطلقى من جديد
مئات العواصف هبت عليك ،
وما زلت صامدة كالحديد
وفيك من الله ما يدفع الشر عنك ،
ولو لم تزوديه أو تتقيه

***

مباركة هذه الأرض ،
موسى ، وأتباع عيسى ،
ورايات أحمد . . مرت بها
وامتزجت بذراتها
وبثت الروح في نخلها
وجذور أشجارها
فصارت مضمخة بالعطور
وكل الزوايا بخور

***

أحبك يا مصر

ليس أمامك حب

ولا حب قبلك

أنت التى فى هواها أدور

وكل الجمال الذى ذبت فيه وغنيت له

ما كان إلا انعكاس جمالك فوق البدور

***

رماد الأحبة هذا الذى نام فى أرضك الطيبه

وسيرتهم تملأ الدار والمصطبه

وحين تطل علينا زياراتهم

تهدهد أحلامنا المتعبه

***

لعبنا صغارا بحاراتها

وجبنا كبارا ميادينها

وحين اصطدمنا بصخراتها

مددنا لها الكف كى نتقيها

أشارت علينا بتفتيتها !

***

لك الله يا مصر

بين الضباع ،

وتحت الصراع ،

وقيد الحسد

يتابعك النمر المفترس

ويشغلك الثعلب الماكر

وأنت تقومين وحدك فى الريح

رافعة وجهك المستضيء

بنور الشموس وضوء القمر

***

أحبك يا مصر رغم السكوت

أحبك . . جتى أموت

يسأل الناس ..

يسأل الناس : ما الذى سوف يجرى ؟

ويعيدون فى السؤال كثيرا

ليس يجرى سوى الذى كان يجرى

فابدأوا النوم ، واستعيدوا الشخيرا

* *

كان حلما ، ووردة ، وصباحا

ثم راحت جميعُها ، وتلاشتْ

هبط الليل من جديد ، وأمسى

زامر الحى فى الكآبة صامتْ !

* *

هذه الأرض جفّفتها المآسى

والغزاةُ الذين داروا عليْها

حينما أسلمت نفسها لبنيها

أنكروها ، وكبّلوا قدميها !

* *

كيف يرقى سلالم المجد عبدٌ

عاش فى القيد ألف عامٍ وعامِ ؟!

انه مرهق القوى ، يتهاوى

وبأضلاعه مئات السهامِ

ملأ الغيم ساحة الأفق ، حتى

لم يعد يظهر الطريق المؤدِّى ..

وتلاقى الضباعُ بعد اصطراع

قسّموا الصيد بينهم دون حقدِ !

مصرُ التى ..

مصر التى نثرت ضفائرها ،

وثارت فى ميادين الكرامة والصمودْ

عادت من الإعياء مرهقة ،

فأسلمت الخطى ،

وتمددت فى ظل منعطف صغيرْ

وتجمع المتكالبون ليقطعوا من ثوبها علَما ،

ويفتعلوا تواريخًا لهم معها ،

ولا يترددونْ

أن يشربوا نخب انتصار الثائرينْ !

لكنها راحت تحدّق فى الوجوه ،

فلا ترى مَنْ كان فى الميدان مشروخَ الجبينْ

أو مطفأ العينين من سيل الرصاص المنهمرْ

مَنْ هؤلاء إذن ؟ وأين الآخرونْ ؟

أين الذين تجمعوا من حولها ،

زمنَ المهانة والأسى ،

حتى أزالت سطوة المتجبرينْ ؟

أين الذين استبسلوا قتلا ،

وفازوا بالشهادة فى سماء الخالدينْ ؟

أين الذينْ ..

ملأوا الميادين الفسيحةَ ،

واستطاع هتافُهم أن يُسقط المتكبرينْ ؟

* *

نظرتُ الى عمق الوجوه ،

فلم يكن فيها شريف أو أمينْ !

نظرت الى أكتافهم ..

كانت كأكتاف الذين استنزفوا بالأمس

خيرات الوطنْ

نظرتُ الى قمصانهم ..

كانت هى القمصان ناصعةَ البياض ،

وتحتها اسودّت قلوب من عفنْ !

نظرتُ طويلا ..

ثم غابت فى مصيبتها التى امتدت

لآلاف السنينْ

ما عاد يطفئها البكاءُ او الأنينْ

وتوجهت نحو الجدار ، لكى تدارى دمعة ،

سقطت أمام الشامتينْ !

ملحمة الفلاح المصرى

في أعمق أعماق الغابات

وقبل مجيء التاريخ بآلاف السنوات

كان يسير بلا هدف

إلا من شربة ماء

أو حبة فاكهة

أو بعض الحشرات

وأخيرا وجد النيل

يسير مهيبا في خطوات متئدات

تتقاذف فية عشرات الأسماك الفضيات

وعلي جنبيه نخيل يعلو ،

ويطاول هامات السحب البيضاء

ألقي بالجسد المنهوك

علي طين الأرض السمراء

وصارت جنته العذراء !

****

في اليوم التالي حمل الفأس الفولاذية

وهوي نحو الأرض يقبلها ، ويقلبها ..

فتبادله أطيب ما فيها من خيرات

أطنان القمح، وأجولة الفول ،

وأصناف الخضراوات

وبداخل منزله

راح يربي بعض البقرات

بقرات كانت تمنحه اللبن الصافي ،

والجلباب الدافئ ، والدهنيات ..

****

كان الفلاح المصري بسيطا

يزرع ، يحصد ، ويزوّج

في خاتمة الموسم أولاده

ويبارك في أروقة المعبد أحفاده

محتملا أغلي ما يملك للكهنة من قربان

ملتزما بالسجدة للفرعون

إذا ما مر بموكبه العائم

بين الشطئان !

****

ظل الفلاح المصري صموتا

لا يتكلم حتي حين تؤرقه الكلمات

وخلوقا يسعي في دعم الضعفاء

ويجلس بجوار النيل يصلي ..

في زمن القحط ،

وحين يفيض الفيضان

وإذا أوقف في محكمة الموتى

أقسم أن يديه ما لوثتا النيل ،

ولا ألقي فيه أعواد الشوفان !

****

كان الفلاح المصري خبيرا

بخبايا الأرض السمراء

يعرف كيف تجود ؟

ومتي تلفحها الشمس الغضبى ،

فتشققها ؟

وبأي مدار يفرشها البدر إذا اكتمل

بضوء مملوء بالأزهار

لكن الفلاح المصري تفاجأ يوما

من أيام الصيف الحارقة .. بجيش جرار

هاجم من ناحية الشرق

وشتت حامية الجند .. بلا إنذار

وتوصل للفرعون الأعلي ،

أسقطه من أقوي برج فوق الأسوار

سقط الفرعون جذاذات ،

وأساور فضيات ، ونضار !

وتبددت المعتقدات المحفورة

في أعمدة المعبد ، والأ حجار ..

لكن الكهنة نفخوا في المبخرة الكبري ،

واعتبرو الغازي ملكا ، وألها ، وسليل الأقدار !

****

رجع الفلاح المصري إلي منزله الطينيّ ،

وراح يحدق في أطفال من غير عشاء

ورأي نظرة زوجته ترمقه باستجداء

لم يعرف طعم النوم ، طول الليل ،

وحين تبدي الفجر ،

مشي نحو الأرض السمراء

يقاسمها الشكوي والإعياء

ويوفر ما تنتجه للغرباءْ

حتي السنبلة الصفراءْ !

فإذا جن الليل

سرى فوق الشط

وأخرج من أعماق الروح

مواويل الصبر الصمّاءْ !

صفحة من الرِّيف المِصري

كانت الأرض غارقة في الضبابِ ،

وفي آخر الحقل : بعضُ البهائم تجترُّ ،

والأفق ممتلئٌ بالغيوم ،

التي أطفأتِ الشمسَ ،

وبعضُ الصبايا يتابعن محرقة القشِّ ،

وبين الغصون غرابٌ عجوزْ

* *

غرابٌ يتابع زحف الهوامِ ،

وخفْق العصافير في الجوِّ ،

نوعَ الطعام المعلَّق في شجر السَّنطِ ،

وكان الهواء ثقيلا ، ثقيلا . .

كما يرقد الصيفُ في مقبرهْ

* *

كانت الأرض عَطْشى لقطرةِ ماءْ

وما كان في النيل إلا القليل ،

وما كانت السُّحب . . إلا خواءْ !

* *

وعند الظهيرةِ ،

فكّ الجياعُ المناديل ،

راحوا يلوكون خبزًا وجبنًا ،

ويزدردون الطعام بقُلّة ماءْ

وبعضِ الأحاديث عن مرض الموت ،

ومَنْ يتزوج في موسم القطنِ ؟

كم عدد التلاميذ حين يجيء الشتاءْ ؟

* *

عاد نصْل المحاريثِ يخترق الأرضَ ،

يضربُ أحشاءَها بالحديدْ

وتحت الحوافر والقدم الحافيهْ

تعوَّدتِ الأرض أن تستجيب . .

لحمْلٍ جديد !

* *

وعندَ حلول المساء الكئيب ،

تعالَى نقيقُ الضفادع في الترع الضيقهْ

وجاءَ مِن البُعد نوح الذئاب ،

فهاج كلابَ القُرى والنُّجوعْ

لقد حان وقت الرجوعْ

بيوتٌ من الطِّين تؤوي الجميعْ

وفيها تُعِدُّ النساء طعام العَشاء

وتُتحف أزواجهنَّ ببعض الحِكايات ،

عما جرى في النهار البَليدْ !

* *

مع الصُبح يبدأ يومٌ جديدْ

جديدٌ قديمٌ ،

قديمٌ جديدْ ..

أرجوزة الصمت

الصمت زينة الحكيم
ومكمن الجبان واللئيم

***

الصمت كالظلام لا يبين
لكنه مكفّن بالحزن والأنين

***

الصمت قطعة من الكلام
تآكلت حروفها من شدة السهام

***

الصمت ساخــر أليــم
وقادر أن يغضب الحليم !

***

الصمت غادر يحيّـر الظنون
وقــاطع كأنــه سكيــن

***

الصمت قد يكون راضيا
وقد يكون غاضبا
وقد يكون مستفـزا
من يا ترى يفهمه ،
من يا ترى يحاوره
ليخرج الكريم من عروقه
ويمسح التراب عن بريقه
ويكشف المستور ؟!

الصمت ليس مثلما يظن .. ضعفا
الصمت بركان ينام تارة ،
وفجأة يثور عصفا
***
الصمت ليس جهلا
الصمت حكمة ومعرفة
الصمت ميراث طويل
خلفه الأجداد للآباء ،
والأباء للأبناء ..
دونما انقطاع
وكلما مضى عليه الدهر .. شاع
***
الصمت للفتاة مكرمه
وشارة من الحياء ملهمه
لكنه للمرأة النضوج غير مستحب
لأنها تضوع كلما تكلمت
وعبّرت عما بصدرها من العبير
***
الصمت والكلام
طريقتان فى الحياه
وكفتا ميزان
إذا أردت أن تعيشها
كما الديدان
فاختر طريق الصمت ،
واحترس من البيان
وإن أردت أن تموت مرتين

فاصدع بصوتك الذى يؤرقك

كأنه ثعبان!

دفاع عن النيل

[بمناسبة تعنّت اثيوبيا في رفع سد النهضة
الذي سيحرم مصر من حصتها المائية
ويضر بمصالحها الحيوية . .

النيل ليس لكْ
والنيل ليس لى
النيل لى ولكْ
النيل للحياة فوق ذلك الترابْ
وللحياة تحته
وكل ما ينبت فى السهول والهضاب
أو يطير فى جوانب الفضاءْ

* *

النيل من خزائن السماءْ
أرسله الله
للذين يحرثون الأرضْ
وللذين يرفعون قبة البناءْ

* *

النيل ليس يعرف الحدودْ
ولا تصده قوائم السدودْ
النيل كالرياح يعبر البلادْ
ويفرش الخضرة فى مواطن السوادْ
النيل منذ انبثق التاريخ

كان نبع الخير فى ربوع مصر
ومصدر النماء فى حقولها
وكان حينا يغرق القرى
فيطعمونه عروسة جميلة
لكى يعود وادعا
كما الغزال فى خطاه ،
والفراش فى جدائل الخميلة

* *

النيل وافر العطاء
فما الذى يجعله
حكرا عليك دون أن يكون للجميع ؟!
يسقى العطاش فى الهجير
ويطعم الجوعى من الشعير
وينشر الظلال والعبير
ولا يرد سائلا
كما يضم مستجيز

* *

النيل كان دائما رباط حب
ولم يكن طوال عمره مثار حرب
فعاملوه .. مثلما يعامل الإنسان
كى لا يضيع منكمو فى الرمل ،
والوديان

الأرض عطشى لم تزل ..

الأرض عطشى لم تزل .. والعيونْ

تقتات رجع الصدى والشجونْ

ورغم أن الشمس قد أشرقت

فإن وجه الصبح لا يستبينْ

* *

من أخمد الفرَح بأشواقنا ؟

من سرق البسمة من وجهنا ؟

من نشر الأحزان فى دربنا ؟

وصدّر اليأس لآمالنا ؟

* *

هل كُتب البؤس على البائسينْ ؟

وسرمد الجوع على الجائعينْ ؟

هل صار هذا الشعب أيقونةً

يُسلمها الظالمُ للظالمينْ ؟

* *

لقد سئمنا الحكم من غاصب

يمتصِ أقواتنا فى العلَنْ

وحين جاء الذي لحمُهُ

من لحمنا .. جوّعنا في الوطنْ !

ياصرخة المحزون لا تخرجى

فليس يوجد مَنْ يستجيبْ

ولتمكثى فى الصدر محبوسة

فان للبركان صمتاً عجيبْ !

—

لقد أهالوا القبر فوق الفقيدْ

ووزّعوا ثروته بينهمْ

وحينما استيقظ من موتِهِ

ما كان في عينيه غيرُ الندمْ !

* *

ياجامع الدنيا بأكفانه

رفقاً بهذا الجسد المنحنى

لسوف تمضى والثرى موطنْ

وهجمةُ الديدان لا تنثنى !

* *

ماذا سيبقى منك بعد الرحيلْ ؟

سوي حديثٍ ناقمٍ مختصرْ

ولعنةٍ تبقى على صفحةٍ

يسردها التاريخ ضمن العِبرْ !

—

القتـل غـدرا..

[إلي جنودنـــــا الذين أستشهـدوا

علي حدود رفح ..

في شهر رمضان 1433 هجريا]

كان العساكرُ صائمين

وانساب صوت المغرب الخفّاق

فى الأفق الحزينْ

بدأ العساكر يُفطرونْ

وتبادلوا التمر المجفف والمياه ..

موحِّدينْ

كانوا جميعا من قري مصر ،

التى امتزجت بحب المرسلينْ

وبدون سابقةٍ ،

هوى سيل الرصاص على صدورهمو ،

التى كانت تكبّر او تسبّح ..

فى سكون الخاشعينْ

من أين جاء الغادر السفاح ،

فى هذا المكان ،

وكيف قرر أن يُغيرَ ؟!

قَتَل الذين يرابطون على الحدود ،

ولم يكن فيهم نذير

ومضى بكل غباوة نحو العدو ،

فنال مصرعه المثيز !

لم يستحق سوى الإدانة ،

لم يكن بطلاً ..

ولا كانت لديه شهامة الفرسانِ ،

أو بعضُ الضميزْ !

اعتاد بالغدر الحياة ،

ولم يعش إلا مع الظلمات ،

فى كهف ضريز

لعنته حباتُ الرمال ،

وقد تخللها الدم المسفوحُ ،

وانبعثت عليه الريح من كل الجهات ،

تضج بالعمل الحقيز !

* *

يامصرُ .. نيلك يصطفقْ

ودموعك البيضاء تهدر فى الضفافْ

وعلى الصحارى اليابسات ،

يلوح فجر من بعيدْ

فجر يشق ستائر الليل البليدْ

فلينهض الشهداء فى قصر الغمام ،

يراقبون الشمس حين تُطل من (سينا) ،

على يوم جديدْ ..

فى كل نافذةٍ شهيدْ !

هجرة غير شرعية

[بمناسبــة غرق قــارب
بأربعين شــابا مصريــا
كانو هاربين من البطالة
للعمل في أوربا . .
أغسطس 2012]

الأربعون
كانوا شبابا يافعينْ
قدموا من الدلتا ،
ومن عمق الصعيد ،
ومن دروب العاصمةْ
بسواعد سمراء لوّحها لهيبُ الشمسِ ،
وامتلأت بأشواك اليقينْ
كانوا جميعا جائعينْ
يتوقعون الخبز فى أفران أوروبا
وقد يتطلّعونْ
لصبية شقراء تختصر المصاعب والسنينْ
كانوا شبابا حالمين
يتلمسون الفجر يخرج من شقوق الليل ،
والأزهار تنبت فى عرى الصبّار ،
كانوا صامتينْ
فى صدر كل منهمو أمل حزينْ
وأثارة من ذكريات لم يفارقها الحنينْ
وتجمعوا فى ركن مقهى ،

لم يكن فيه سوى ضوء هزيل
قسماتهم تحكى عطاش الأرض ،
فى صيف الشراقى ،
والعيونْ
لم تكتحل بالنوم .. آلاف السنينْ
وتحجرت فيها دموع الكادحينْ

وأتى المقاولُ ،
أفرغوا فى جيبه ما يملكونْ
وكأنهم .. ثمنا لحب الموت كانوا يدفعونْ
وعلى رمال الشط .. ساروا مرهقينْ
وتقاطروا متسللينْ

حسبوا الخلاص بأن يجوبوا البحر
بعد البر .. غير مجهَّزينْ
فى قارب شاخت قوادمهُ ،
وضجّ به الأنينْ
كان الظلام يلفّهم ،
والموج يرفض ضربة المجداف

فى غضب عنيدْ
والملح يصعد للخياشم والجفونْ
والبحر..

ليس البحر تلك اللوحة الزرقاء
تملأ حائط الأفق الجميل

بل غضبةَ المجهول ،
تعتصر الضحايا فى ذهول

حتى الشراع تمزقت أحباله ،
وسرت من الألواح .. رائحةُ الجدوذ

—

غرق الذين استسلموا ،
وطفا الذين تماسكوا ،
وإحتار فى تعدادهم .. حرسُ الحدود
فى نشرة الأخبار ، قالوا :
إنهم بعض الشباب الضائعينْ
الخارجين على قوانين البلاد ،
وقد تملكهم جنونٌ!
وتحدث الفقهاء عن سوء المصير ،
لكل منتحرٍ ،
وقال البعضُ :
بل شهداءُ فى حلل الحريرْ

—

الأرض والمطر

هنا .. كانت الأرض عطشى
وحين تلاقى السحاب
تهاوى المطر
غزيرا
كأن جفان السماء
استفاض بها الماء
ثم انهمر

تفتح فى السهل بعض النبات
وطار فراش
وغنى شجر

وعادت لأشلائها الروح
هبت من الأرض صم الصخور
استفاق التراب
وذاب الحجر

وجاء الخريف
فجف الرحيق من الزهر
أسقط كل غصون الشجر
وطار بأوراقها فى الهواء
وألقى بها فى بطون الحفر
تشققت الأرض
ساد الجفاف
ولم يبق إلا صدى يحتضر ..

توقعت أن يحدث المستحيل
فيمضى الخريف
ويأتى الربيع

فتزهو الحياة
ويحلو السمر

ولكنه الليل حل
كما يرسخ الجبل المستقر
فآوى الغمام
وأخفى القمر

رجعت إلى الكهف
أنظر من فتحة فيه
ليس هناك سوى الريح تعوى
وبعض الطيور التى لا تغرد ..
أفُــق عميق الأسى والحذر
وما زالت الأرض عطشى
تناشد قلب السماء الرحيمة
بعض المطر

قصائد نثر

أغنية للأرض ..

أيتها الأرض ..
التى أشتاق إليها بمجرد الابتعاد عنها
وأعتصر جسدى فوقها حتى الذوبان فيها
وحين أمرّغ وجهى بترابها ،
تتلاحق أنفاسى من شدة التمسك بها

—

أيتها الأرض النابضة
حين تضغطين على جسدى المنتفض
أحرص على أن ألتصق بكل ذرة فيكِ
حتى نكون أنا وأنت جسدا واحدا
وبين آونة وأخرى ..
أصعد إلى قمم جبالك
وأغوص فى أعماق بحارك
وأتوه فى صحاريك الشاسعة
لكن ما يردّنى إليك دائما
نظرةٌ من عينيك الراضيتيْن ،
وقبلة من فمك الذى بطعم الفاكهة

أيتها الأرض الكريمة
أنت تعطين بلا حدود
وأنا أتلقّى منك بغير شبع
جائعٌ إليك على الدوام
عطشان إليك قبل ارتوائى وبعده
من شدة قربى منك لا أكاد أراك
وبعيونى المغمضة ،

أتخيلك فى ألف صورة وصورة
روكسانا ، وأفروديت
كليوباتره ، وشجرة الدر..
كل التماثيل التى جسّدت أجمل نساء العالم
صاغها الفنانون من هضابك الرخاميةْ
ثم غسلوها بعد ذلك بالمطر المنهمر
حتى أصبحتْ فى بياض الثلج
ونعومة أوراق الورد

أيتها الأرض الساحرة
خرجتُ منك ، وإليك أعودْ
أنت بدايتى ونهايتى
أنت مهدى ومقبرتى
أنت امى وحبيبتى
يمكنك إغراقى وانتشالى
يمكنك حرقى وإطفائى
يمكنك طردى واحتوائى
مهما ابتعدتُ فأنا قريب منك
مهما سافرتُ فأنت محطتى القادمةْ
مهما انخدعتُ فأنت الأصل والحقيقةْ
أنا حر ، لكننى مقيد بانتمائى إليك
أنا برىء ، لكننى متهم بالوقوع فى غرامك
أنا متفائل ، لكننى أخشى السقوط فى أحد آبارك

أيتها الأرض .. الحانية والمستبدةْ
مهما انتزْعتِ ثوبك الطويل من يدى
ومهما أصررتِ على عدم استقبالى فى قصرك
ومهما قلت للجميع :

إنك لم تعودى تعرفيننى
فسوف أظل متمسكا بك
طارقا بكل قوتى على بابك
منشدًا أغنياتى فى حدائقك
معلنا لكل الناس والأشياء .. حبى لك
لأننا – أنت وأنا – مثل الليل والقمر
مثل الشمس والنهار
مثل البحر والشاطئ
بدأنا معا ..
وسوف تكون نهايتنا أيضا .. معا !

نخلـــة الوفـــا

فى قريتنا نخلة
تعود الناس أن يطلقوا عليها : نخلة الوفا
وهى طويلة جدا ومعمّرة
ويقال : إن جد جدى هو الذى غرسها
وأن بلحها هو الأحلى على الإطلاق
كنا ونحن صغار نتسلقها لنأكل منه
حتى قبل أوان نضجه
لكن الكبار كانوا ينهروننا ، ويقولون :
ـ لماذا تستعجلون ؟!
ـــــ
توجد هذه النخلة
فى موقع وسط تماما بين حقلين
لأخوين متنازعين
وذات يوم قررا أن يشقاها نصفين
ويأخذ كل منهما نصيبه من أخشابها
لكن حكيما فى القرية
عرض أن يشتريها منهما
وراح يجمع التبرعات من أهل القرية
ومن يومها ..
أصبحت النخلة ملكا مشاعا
بين أهل القرية كلهم
ـــــ
حكايات كثيرة تروى عن هذه النخلة
ويقال إنها شهدت العديد

من قصص الحب والتضحيات

تحتها .. كان يلتقى العشاق فى بداية حبهم

ثم بعد أن يتزوجوا، وينجبوا ..

يأتون إليها لاستعادة ذكرياتهم !

وكان بعض الأحباب يقْسم تحتها

أن يظل مخلصا لحبيبته

حتى لو تزوجت من غيره

لهذا أطلقوا عليها : نخلة الوفا !

وهناك حكاية حزينة

لشاب رياضى ، مفتول العضلات

صعد ذات يوم الى أعلاها

وفجأة هبت ريح عاصفة

هزته بشدة ،

فسقط على الارض جثة هامدة !

أصبحت النخلة من معالم القرية

بل أبرز معلم فيها

وحين زحفت البيوت على الحقول

وأحاطت بها

صار الناس يشيرون الى بيوتهم

بأنها التى تقع شرق النخلة أو غربها ..

منذ عدة سنوات ..

لم تعد الخلة تطرح بلحا

وقيل إنها شاخت ، وفى طريقها للموت..

لكن الكثير من أهل القرية

وخاصة الأطفال ،

لم يصدقوا شيئا من ذلك

إنهم يعتبرونها تماما مثل أمّ لهم
باستثناء واحد ..
أنها لا تحكى لهم حكايات ما قبل النوم !

لا يدرك أحد طول النخلة الحقيقى
إلا إذا جلس تحتها ،
وراح ينظر إلى أعلاها ..
فهى عجوز .. لكنها صلبة ومتماسكة
وجذعها المليء بالتجاعيد
لم ينحن أبدا رغم هبوب الريح ،
ومرور الزمن ..
لكن غرابا وزوجته اختارا عشهما فى أعلاها
وكثيرًا ما يحلو لهما
أن يراقبا الجالسين تحتها
ثم يهبطا بعد انصرافهم ،
ليلتقطا ما خلفوه من بقايا طعامهم
منذ أيام ..
زارنى أحد أقاربي من القرية
وكالعادة رحت أسأله عن أحوال الأهل والأصحاب
وبالطبع سألته عن النخلة ؟
فوجئت بأن الحكومة قررت إزالتها
لأنها تعترض طريق السكة الحديد المقترح ..
كان الرجل فرحا للغاية ،
نظرا لمرور القطار على القرية
أما أنا .. فقد غمرنى حزن عميق ..
عميق جدا ..
لأننى كنت واحدا ممن اقسموا تحت الشجرة ،
بان يظلوا أوفياء لحبيباتهم ..

حتى ولو تزوجن من آخرين !

بيت على المحيط

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
حيث أنهض فى الصباح الباكر
فأستنشق بملء صدرى
تلك اللفحة الباردة
من الهواء المشبع بالرطوبة
والممتزج برائحة السمك
والذى ينبع من كهف بعيد
يقع فى عمق المياه الزرقاء

**

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وعندما يعلو الموج ،
ويشتد زئير الرياح
أحتمى بغرفتى
وأنظر من زجاج النافذة
إلى الطبيعة فى حال غضبها
والتى تجعل السفن العابرة للقارات
تتوقف تماما عن الإبحار
أما النورس العائد من رحلة صيده الطويلة
فإنه يحمل فى منقاره بعض الطعام
لفراخه الجائعة التى تنتظره فى العش ..

**

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
حيث أجدنى متواصلا فى نفس الوقت
مع نهاية الأرض اليابسة
والمياه المترامية بدون نهاية
وفى المساء ،
أكون محاطا بقبة السماء
التى تمتلئ بالنجوم
وهى تشع وتنطفئ ..

**

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وأن يخلو من التليفون
حتى لا ينزعنى رنينه المزعج
من صفاء وحدتى ،
وتسلسل أفكارى
فقط .. تكون هناك بعض الكتب
التى لم أستطع قراءتها
بسبب مشاغل العمل والحياة

**

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وألا يزورنى من وقت لآخر
سوى بعض من أحب
نجلس على الشاى ، ونتحدث

محاولين إحياء ذكرياتنا القديمة
الجميلة ، والمؤلمة معا
وعموما ، فإننا بعد مرور الزمن ،
وتقدم العمر
قد تخلصنا من سطوتها علي أرواحنا
وأصبحت مجرد خيالات
تتلاقى وتنفصل
على ستائر من حرير شفاف!
**
كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وأن ازرع أمامه
حديقة صغيرة تكون ملأى بالورود
وفى وسطها شجرة فل
لكى أقطف منها واحدة فى كل صباح
وأظل أشمها طوال النهار
حتى إذا ذبلت ، وجفت
أحتفظ بأوراقها بين صفحات كتاب !
**
كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وألا يكون فيه تلفزيون
حتى أتجنب مشاهدة أفعال الأشرار ،
ومآسى الحروب
ولا أتابع نصائح الجهلاء ،
وحوار الطرشان

وأستريح من مذيعات الربط ،
وضراوة الإعلانات!
**
كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
لكى أتعاقد مع صياد محترف
يحضر لى ما يرزقه الله به من أسماك
خارجة فى نفس اللحظة من صفو الماء
لم تتعرض للتلوث
ولم يحقنها أحد .. بالهرمونات!
**
كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
حيث يكون الهدوء شاملا
فلا أسمع
مشاجرات الشارع
ولا كلاكسات السيارات
ولا ميكرفون تاجر الروبابيكيا
أو زمارة بائع غزل البنات !
**
كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
حتى لا أضطر لمناشدة جارى
الذى يلقى قمامته أمام بابى ،
ولا إلى الاعتذار لصديق
يسعى لتلمس أخبارى

حتى ينقلها للآخرين
ولا إلى الوقوف فى طابور
لكى أصرف مبلغا من مالى
الذى وضعته بنفسى فى البنك !

**

كنت أتمنى
أن يطل بيتى على المحيط
وعندما يأتى الموت
وهو لا محالة آت
أكون مستعدا لاستقباله
وأنا فى آخر مكان على يابسة الأرض
وسط الرياح
وبين الماء والسماء ..
أما أصدقائى
فليتهم يحققون أمنيتى الأخيرة
فيجعلون قبرى فى الحديقة الصغيرة
التى سبق أن زرعتها
لكن بشرط ألا يخلعوا من وسطها
شجرة الفل !

***

حفنة من تراب القمر

كانت حين تهل من شرفتها
أجمل من كل بنات الحى على الإطلاق .
وكانت تفضل
أن ترتدى فساتينها بألوان زاهية ،
مليئة بالورود الحمراء والصفراء والزرقاء .
ومن عادتها
أن تجمع شعرها الأسود الكثيف
فى ضفيرة مكتنزة ،
تلتف من خلف عنقها
وتتدلى على صدرها .
وكانت تزين عنقها بسلسلة ذهبية ،
فى وسطها قلب صغير ،
يحلو لها أن تضعه فى فمها .
أما ابتسامتها فكانت مثل الدنيا حين تضحك ،
ولها على جانبى خديها
غمازتان يزيدانها حسنا .
وقد اتسم سلوكها
مع أسرتها وجيرانها
بالأدب الجم والخلق الطيب .
وكانت رغم حيائها الشديد ،
تدلى برأيها الصائب فيما يدور حولها ،

لذلك كان إخوتها ،
بما فيهم الأكبر سنا ،
يلجأون إليها لأخذ نصائحها ،
والعمل بها.
أحببتها منذ اللحظة التى رأيتها .
ومن حرصى الشديد على هذا الحب ،
لم أصارح به أحدا من أصدقائى .
كنت بين العاشرة والحادية عشرة ،
وكانت هى تصغرنى بسنة ونصف ،
لذلك فقد نمونا معا ،
وكنت أتابعها وهى تذهب إلى المدرسة
أو تعود منها ،
وحين تلتقى أعيننا
أشعر برعشة تسرى فى كل جسدى .
وفى أحلامى كنت أراها كملاك ،
وليس كإنسانة من لحم ودم .
أما لحظة الإعلان عن الحب ،
فلم تكن بالكلمات ،
وإنما من خلال نظرة طويلة
وعميقة
ومصممة
قام بها كل منا ،
ولم يتراجع ،

حتى بحنا بكل ما كان مختبئا
في أعماقنا السحيقة .
ساعتها أيقنت أنها تبادلني نفس المشاعر ،
والعواطف ،
والأحاسيس .
ويومها انطلقت مبتعدا في الضواحي
لكي أسترجع وأستمتع وحدي
بكل تفاصيل تلك النظرة ،
التي تأكد لي فيما بعد ،
أنها لا تحدث في العمر كله
سوى مرة واحدة ..
مرة واحدة فقط !

—

كنت بحكم صداقتي لإخوتها
أتردد على مسكنها ،
وصرت أتبادل معها
بعض الأحاديث الخاصة ،
ولا سيما عندما يخلو لنا الجو.
أطلعتني على كل ما تحبه
أو تكرهه :
ماذا تأكل ؟
ومتى تنام ؟
وكيف تختار فساتينها ؟

ومن هو الأقرب إليها من أسرتها ؟
وبالطبع لم يخف حالنا
على أحد إخوتها الخبثاء ،
فكان يلمح لى أحيانا ببعض ما تقوله عنى ،
لكننى كنت أحاول التجاهل ،
رغم سعادتى به.

—

دار الزمن دورته ،
ومرت السنوات ،
فإذا بها تتجاوز السادسة عشرة ،
وتبدو كأنها فى العشرين .
وبالطبع بدأ يظهر بعض الخطّاب والعرسان
من ذوى الحيثية .
كانت تحدثنى عنهم ،
وكان يطمئننى رأيها السلبى فى كل منهم .
أما أنا ..
فكنت أصمت ولا أرد .
وماذا أقول وأنا فى آخر المرحلة الثانوية ،
وليس من قدرتى ولا من حقى
أن أقدم على الزواج ؟
لكننى بمجرد التحاقى بالجامعة
وانشغالى بها
سمعت خبر خطبتها ،

ثم زواجها ،
وانتقالها مع زوجها
إلى مدينة أخرى.

—

أسرعت بالعودة إلى منزلنا
وأغلقت على نفسى باب غرفتى
ووجدتنى أنخرط فى بكاء شديد ،
ذرفت فيه دموعا غزيرة ،
وكنت أسمع لنشيجى صوتا عاليا
رحت أكتمه قدر جهدى
حتى لا يسمعه أحد من أسرتى .
لكن أمى هى التى لاحظت ذلك
فراحت تكثر لى من الدعاء
بالهداية وصلاح الحال .
ومن جانبى حاولت أن أنسى ،
فخففت من حزنى بالمذاكرة ،
والانشغال بالنشاط الجامعى

—

بعد عام كامل ،
وبينما كنت واقفا كعادتى تحت شرفتها ،
فوجئت بها تنزل من السيارة ،
يعاونها زوجها فى حمل حاجيات ابنتهما الصغيرة
وقبل أن تدخل من باب المنزل

التفتت نحوى فى نظرة محايدة :

لا هى بالغاضبة ولا بالمعاتبة ،

وكأنها كانت راضية تماما بماحدث !

—

رجعت الى منزلنا

الذى كان يعلوه سطح فسيح ،

وجلست فى ركن منه

أنظر إلى القمر ،

وهو فى غاية اكتماله .

كان مستديرا وكبيرا ومضيئا وسط الظلام ،

لكننى لاحظت به بعض البقع السوداء ،

وبعضها غائرة وعميقة .

كان فيما يبدو حزينا مثلى .

وساعتها تمنيت

أن يمنحنى حفنة من ترابه الفضى

لكى أرشها على القبر

الذى دفنت فيه حبى الأول !

—

دمعة على النيل

من وقت لآخر
وخاصة فى الأعياد وشم النسيم
كنت أذهب مع أبى وأمى إلى شط النيل
وهناك .. نختار مكانا معشبا لنجلس فوقه
وبعد فترة ..
تقدم أمى لنا الطعام الذى أعدته
وبعض الحلوى
كنت أستمتع كثيرا بتلك الجلسة
التى نتحدث فيها ، ونأكل ،
ونحن ننظر إلى امتداد مياه النيل
التى كانت تتلون مرة بالزرقة ،
وأخرى بالخضرة ،
وأحيانا تكون بنية بلون الطمى
لكنها فى كل الأحوال
كانت تبعث فى روحى
وانا بين أمى وأبى
سعادة لا حدود لها !

**

مرت الأعوام
وكما يقولون :
لا يبقى شىء على حاله
ماتت أمى

وبعدها بعام واحد
مات أبى
ووجدتنى أذهب الى نفس المكان
هناك على شط النيل
ولا أغادره
حتى تذرف عيناى بعض الدموع
عندها أحس ان بعض الألم قد خف
وأن لوعة الفراق .. قليلا قد تراجعت

**

ثم مرت أعوام كثيرة
أبعدتنى عن عالم الطفولة الرهيف
لكننى لم أتخلف أبدا
عن عادة جلوسى على النيل
الفارق الوحيد ..
أننى أصبحت أجلس فى أرقى الكافتيريات
ومنها أراقب البواخر السياحية
التى تنساب على صفحته الملساء
وحين يحل المساء
أستمتع برؤية الأضواء
المتلألئة على الضفة الأخرى
ولمعان أضوائها على مرآته السوداء ..

**

وعلى الرغم من قراءاتى حول منابع النيل
وحقائق التضاريس الإفريقية ،
والتى تؤكد أنه يأتى من تجمع الأمطار
المتساقطة بغزارة على هضبة الحبشة

ثم يمر بالسودان
فإن كلمة أبى الحبيب
ما زالت تتردد فى أعماقى :
النيل يابنى .. ينبع من الجنة
وقد وهبه الله لأرض مصر الطيبة !

* *

وذات صباح حزين
كنت أمر على بائع الجرائد
فوجدت عناوينها الحمراء
تتحدث كلها عن سد ضخم
تقيمه الحبشة على أرضها
لتستفيد منه فى إنتاج الكهرباء
وهذا يعنى ..
أن جزءا كبيرا من مياه النيل
سوف تنقطع عن المجيء إلى مصر
ولم أتمالك نفسى
فقد اغرورقت عيناى بالدموع
وسقطت منها دمعتان ساخنتان
إحداهما على أبى وأمى ،
والثانية على النيل !

عجائب التحولات

فى حدائق الذنوب
ظللت أتمتع طويلا بكل أنواع الفاكهة
التى تتدلى من غصون الأشجار
وأستنشق بملء صدرى
مختلف روائح العبير
التى تبثها الزهور والورود
وكنت إذا هبط الليل
أجلس وسط صحبة مختارة
نستعرض معا صنوف الملذات
ونوازن بين طعومها المتنوعة
وكل منا خبير فى مجاله
وصريح فى نقل تجربته للآخرين
ولا يكاد هؤلاء يستمعون إليه
حتى يطبقوا ما سمعوه فى اليوم التالى
وهكذا كانت الملذات تتناقل
والذنوب تكثر وتتراكم
أما أيام العمر ..
فكانت تنساب من بين أصابعنا
كالماء الجارى

ونحن لا نعيرها التفاتا
فالشباب موفور

والصحة مواتية
وكل ما نرغب فيه متاح..

***

وذات يوم
سقط أحدنا مريضا
وتوفى آخر فى حادث مفاجئ
ولم يكن أمامنا مفر
من عقد اجتماع طارئ
نبحث فيه أمورنا
ونراجع أنفسنا
قال أحدنا :
ـ لقد بدأت أستعين بالمقويات
وقال آخر :
ـ والطبيب أنذرنى بارتفاع مستوى الضغط
وقال ثالث :
ـ أما أنا فهناك مشاكل حادة مع زوجتى
كان اجتماعا بائسا وحزينا
وحين انفض ، فضلت أن أعود لمنزلى ماشيا
ولم أدرك أننى قطعت عدة كيلومترات
لأننى حين وصلت المنزل
كنت قد استهلكت كامل قوتى
ودون أن أخلع ملابسى
وحتى الحذاء
القيت جسدى المنهك على السرير

واستغرقت فى نوم عميق
عميق جدا
تخلله حلم مفزع :
وجدتنى أسير فى صحراء شاسعة
كلها رمال وكثبان
وليس بها واحة ، ولا نبع ماء
بل شمس ملتهبة
وغبار حاد يسفع الوجه من كل اتجاه
ويستقر بكل استفزاز فى العينين
واصلت المسير حتى بلغت تلة عالية
فصعدتها لكى أشرف على ما خلفها
لعلنى أرى مكانا مأهولا ألجأ إليه ..
لكننى حين بلغت قمتها لاهثا
انزلقت قدمى فى هوة سحيقة
مليئة بالصخور الصلدة ،
ونباتات الصبار الجاف
حاولت أن أصيح ، فلم يطاوعنى صوتى
كان مبحوحا تماما
وفجأة بدأت اسمع صليل أفعى مجلجلة
ثم وجدتها تنهض واقفة أمامى
وتتهيأ لرش سمها فى وجهى
حاولت أن أرجع للخلف
فوجدت قدمى تسوخان فى الرمال
ولم ينقذنى سوى صوت زوجتى
وكانت قد خلعت حذائى

وراحت تعدل جسدى على السرير ..
نـهضت أشكرها بشدة ، فاندهشت
قلت لـها مرارا : لقد أنقذتنى فعلا
أما أنا فرحت أستعيذ بالله ..
الله الذى ابتعدت عنه طويلا
والذى أتوسل إليه اليوم
أن يغفر لى ذنوبى
وأن يأخذ بيدى
لكى أتحول إلى طريق جديد..

كيف تعرف أنها تحبك ؟

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا نظرت إليها فجأة
فوجدتها كانت تنظر إليك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا أعدت فطورك
قبل أن تنهض من فراشك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا قدمت لك كوب الشاى
وتحته طبق
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تودعك بقبلة
وأنت ذاهب إلى العمل
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا لوحت لك من الشرفة
وأنت فى الطريق إلى عملك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا سارعت بإغلاق التليفون
عندما تشعر بانشغالك فى العمل
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا كانت فى أبهى زينتها
وهى تفتح لك الباب
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تضع رأسها فى حجرك
وأنت تشاهد التليفزيون
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تظهر الاحترام لأصدقائك
وتتحفظ كثيرا عند زيارة خصومك
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا تجنبت الشجار تماما
مع نساء جيرانك
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تجعل أقاربك
يشعرون بأنها تحبهم .. أكثر منك
**
كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تقتصد من مصروف البيت

وتقدمه لك عند الحاجة

**

كبف تعرف أنها تحبك ؟

إذا احتضنتك من الخلف

ووضعت كفيها على عينيك قائلة :

من أ نا ؟ !

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا ناولتك شيئا من طبقها

وأنت لم تكمل طبقك بعد

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا رتبت ملابسك

ووضعت لكل بدلة

الكرافتة التى تناسبها

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا صحبت الأطفال لطبيب الأسنان

حين تكون مشغولا

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا أسكتت الآولاد تماما

عندما تغفو فى وقت قيلولتك

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا توقفت عن الحكى

حين تشعر أنك غير مهتم

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا لم تظهر الضجر بتاتا

من هوايتك المفضلة

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذاعرفت درجة حرارتك

دون أن تستخدم الترمومتر

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا تخلت عن زينتها تماما

وأنت مريض

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا رفضت إلحاح أهلها بكل حسم

ولم تتزوج أحدا بعد وفاتك!

شرفة على بحر إسكندرية

فى شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
يطيب لى أن أجلس
لساعات طويلة
أقرأ فى كتاب
أو أنظر إلى زرقة مياه البحر
الذى يتلامس هناك
فى نهاية الأفق
مع السماء الصافية

***

بجوار شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
تقيم خلال شهور الصيف
أسرة مصرية
متعددة الأجيال
الجد والجدة
والأب والأم
وابنتهما الشابة الجميلة
وولدان صغيران
أحيانا تجتمع الأسرة كلها

وفى أحيان أخرى
تجلس الشابة وحدها
وهى تنظر مثلى إلى زرقة مياه البحر
ومن الغريب
أنها لا تلتفت نحوى أبدا
لكنه تترك شعرها
يتطاير مع نسائم البحر
ويتحدث معى بدون انقطاع !

***

فى شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
أحول أن أطرح من رأسى
كل هموم القاهرة
وأن أنسى تماما
كل الإساءات التى وقعت فى حقى
كما يحلو لى
أن أغوص عميقا فى الماضى
لكى أستخرج منه
بعض اللحظات الجميلة
التى عشتها
فى فترات صباى وشبابى
لكن بعض الأسماء مع الأسف
بدأت تتلاشى
والوجوه لم تعد واضحة
كما فى الصور الفوتوغرافية

التى اصفرت ، وتآكلت أطرافها ..
حينئذ أدرك أن الماضى لن يعود
وأن الشابة التى تجلس فى الشرفة المجاورة
وظهرها لى
هى الحقيقة الوحيدة
التى يبلل شعرها رذاذ البحر
وتفرده الريح فى اتجاهى ..

***

فى شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكنرية
يمتلئ الشارع بالأعاجيب
بائع غزل البنات بزمارته المزعجة
وتاجر الروبابيكيا
بميكرفونه الصاخب
وموزع الأنابيب بدقاته الحادة
والشباب الذين يمدون السجاجيد
على أرضية الشارع
لكى يعرضوها على السكان
بحناجرهم العالية
وأحيانا بعض الحواة
الذين ينفخون النار من أفواههم!
هذه وسائل عيشهم
وهم يفعلون ذلك
لجذب انتباه السكان
أما أنا ..

فلا يجذبنى سوى رؤية جانب واحد
من وجه الشابة الجميلة
التى تقف وسط أسرتها
للفرجة والاستمتاع !

***

فى شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
أستطيع أن أشاهد بوضوح
تقوس البحر فى شبه دائرة
وهذا يعنى
أننا نعيش فوق كرة كبرى
ويقال إنها تدور حول نفسها
كما تدور حول الشمس
لكننى لا ألاحظ أبدا هذا الدوران
ولعل هذا أفضل
حتى لا أفقد توازنى
وأسقط على الأرض
إذ كيف يستطيع أن يتماسك إنسان
وهو يقف على كرة متحركة ؟ !

***

فى شرفتى التى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
تدخل الشابة إلى شقتها
ثم ما تلبث أن تعود

وبيدها كوب شاى
تضعه بعناية
على حافة الشرفة
وتبدأ فى ارتشافه بهدوء
دون أى التفات نحوى ..
أعلم أنها تعرف
كم أتوق لرؤية وجهها
وأن ألتقى بعينيها
فى نظرة طويلة وعميقة
لكنها حريصة جدا
ولا تسمح لى
إلا بمتابعة شعرها المتطاير
مع نسمات البحر
التى تهب علينا معا
بدون انقطاع !

***

فى شرفتى الى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
أفاجأ ذات صباح
بحركة دائبة
فى الشقة المجاورة
إنها نهاية الصيف
وأصحابها يستعدون للمغادرة
يلملمون الأثاث
وينزلون الستائر

ويستدعون السيارة
التى تحمل الحقائب
وهاهم يتخذون مقاعدهم
والشابة بجوار شباك السيارة
تجلس معتدلة القامة
وبصرها دائما للأمام
دون أن تلتفت
إلى البيت الذى كانت تسكنه ،
ولا إلى جارها
الذى لم تنظر أبدا
فى عينيه !

بحثا عن الزمن المفقود

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أصحو فيه من النوم
فأجد الصبح قد تنفس
والليل ضم ستائره ، ورحل
وبعض البلابل تملأ الفضاء بصفيرها
والندى يترك قطراته على أوراق الزهور
وبائع الألبان يطرق الأبواب
فتفتح له فتيات الحى
على جفونهن بقايا النعاس
وبأيديهن الأوانى الفارغة
وهن يقلن له بصوت رقيق:
ـ صباح الخير يا عم مفتاح

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كنا نتجمع فيه عند جرس الفسحة
ونقسم أنفسنا إلى فريقين
ثم نبدأ المنافسة فى أى لعبة
حتى لو كانت الجرى والاختباء
وعندما نتعب من اللعب ،
ويبلغ بنا الإرهاق مداه

نتوجه إلى مقصف المدرسة
ونشترى بعض المثلجات
لنطفئ بها حرارة أجسامنا

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أحب فيه فتاة ، وتحبنى
ونتبادل النظرات من بعد
هى فى شرفتها
وأنا واقف على الناصية
وحين يظهر إلى جوارها أحد والديها
أتظاهر بالنظر إلى السماء..
أما هى فتظل حاضرة فى قلبى
حتى بعد أن تغادر الشرفة!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أرتاد فيه الجامعة
محملا بالآمال الكبرى
والطموحات التى لا حدود لها
أقبل على مناجم المعرفة ، فيعذبنى امتلاكها
وأهجرها فى أحيان أخرى ،
فيعذبنى أيضا هجرها
حتى تظهر زميلة ، ذكية جدا
تدرك سر عذابى ، فتأخذ بيدى
وتظل تشجعنى..
حتى أصل إلى أبعد مدى ممكن!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أحصل فيه على الوظيفة التى تناسبنى
وهى متعددة الدرجات
مثل السلم الذى يصعد إلى معبد بوذى
فى مرتفعات التبت
وكلما صعدت درجة
امتدت تحت قدمى عشرات الدرجات
لكننى كنت أشعر بسعادة بالغة
حين أنظر خلفى..
فأجدنى قد قطعت شوطا هائلا
وتغلبت على عقبات لم تكن أبدا فى الحسبان.
ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى يمتلئ بالأقارب الطيبين
ويكون مركزه : أبى وأمى
ونلتقى كلنا حول مائدة الطعام
ثم نتناول الفاكهة
ونختم بالشاى
وبعد جلسة طويلة وحميمة
نودعهم عند الباب ، قائلين:
- إلى لقاء قريب!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أجلس فيه مع أصدقائى
أصدقاء الصدق والصفاء

نتحدث عن كل ما يهمنا ،
وكذلك ما لا يهمنا
دون أن نخفى شيئا
فنحن على ثقة من أن ما نقوله
لا يتسرب خارج دائرتنا
ولا يمكن لأحد أن يستغله ضدنا
ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى يطرق بابى فى منتصف الليل أحد الأصدقاء
لكى يخبرنى أن صديقا لنا
قد تعرض لحادث ، وهو الآن بالمستشفى
وعلى الفور ، نذهب إليه
ونظل هناك حتى يطلع الصبح
ويقول لنا أحد الأطباء:
- لا داعى للقلق .. سيكون بخير.
ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
حين كنا نتجمع حول الراديو
ونتابع خلال شهر رمضان مسلسل "ألف ليلة"
وفى شهر آخر مسلسل "الظاهر بيبرس"
وفى الصباح ، نستمع لحديث دينى سمح
من الدكتور دراز ، أو الشيخ شلتوت
ومع المساء..
نروح عن القلب بسماع أم كلثوم ،
وعبد الحليم حافظ.
ما زالت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كان فيه أجمل مكان بالقاهرة

هو "وسط البلد"
وكان هو مكان نزهتنا المفضل:
الميادين فسيحة
والشوارع نظيفة
والمحلات تعرض بضائعها بدون تكديس
والمقاهى تستقبل روادها بكل ترحاب
والسينما المكيفة تنقذنا من شدة الحر

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى لا تحتوى فيه نشرة الأخبار
على أى حادث إرهابى
أوشخص يفجر نفسه فى سوق
أو شاب ينتحر بأعلى عمود نور
أو مجموعة مهاجرين غير شرعيين
ينقلب بهم المركب فى وسط البحر!

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كانت فيه أصوات قارئى القرآن..
مصرية خالصة.
محمد رفعت ، وشعيشع ، والبنا ، والمنشاوى
ثم الرائع مصطفى إسماعيل
وأخيرا الصوت الذى هبط إلينا من السماء
عبد الباسط عبد الصمد!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى لم نسمع فيه قط
عبارة "الفتنة الطائفية"
لأن المسلمين والأقباط
استمروا لمئات السنين
متعايشين ومتداخلين وممتزجين..
والله يجازى من فرقهم
وما زال يسعى لتفريقهم!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كان لدينا فيه من الأعياد الدينية:
عيد الفطر وعيد الأضحى
وكنا فى مصر ، وبدون شغب أو تعقيدات
نحتفل بيوم شم النسيم
ورأس السنة الميلادية
ورأس السنة الهجرية
وعيد الجلاء ، وأمثاله من الأعياد الوطنية..
ولم يكن أحد من كبار العلماء حينئذ
يحرمها علينا ،
أو يكفر من يحتفل بها!!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كنت أقرأ ، بل أعيش فيه ، مع
دواوين شوقى وحافظ وإيليا أبو ماضى..
وروايات السباعى وإحسان ونجيب محفوظ..

ورائعة هيمنجواى (العجوز والبحر)
ومطولة تولستوي (الحرب والسلام)
ومبكية فيكتور هيجو (البؤسا)
وقصص تشيكوف القصيرة والساخرة
كل هذه وأمثالها كثير
كانت هى مصدر سلواى وسعادتى معا
فى غياب التلفزيون
لكن حين ظهر هذا الملعون
انتزعنى منها كلها!!

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
حين يفاجئنى النوم بحلم
أرى فيه أمى وأبى وزوجتى
ونظل نتحدث فى موضوعات كثيرة
ونناقش أراء غاية فى الدقة
لكننى حين أصحو
لا أجدنى أتذكر شيئا منها
فقط الوجوه ، والصوت ، ونظرات الحنان
وهذا بالضبط ما أفتقده فى حياتى الحاضرة!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى حلمت فيه ذات ليلة
برؤية الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه.
كنت فتى صغيرا فى حوالى العاشرة

أدرس صباحا فى مدرسة الجمالية

وأحفظ القرآن عصرا فى مسجد المستعلى بالله

وحين أهل علينا

قام أبى وأمى فرحبا به ، وقبلا يده

وعندما هم بالجلوس عل طرف براندة

فى البيت الريفى الذى كنا فيه

أسرعت بوضع منديلى ليجلس عليه ،

ولكى آخذه بعد ذلك وأمسح به وجهى

عشت طويلا أحتفظ لنفسى بهذا الحلم النادر

وأنا فى انتظار متلهف

لكى أراه مرة أخرى

والموتى أيضا يزورونـنا..

تعود الكثير منا أن يزور الموتى
لكن من قال : إن الموتى أيضا لا يزورونـنا!
إنـهم حين يقررون ذلك
ينتظرون لحظة مناسبة تماما
خلال نومنا العميق
ويدخلون إلينا من الأبواب المغلقة
وأحيانا من النوافذ
وقد ينسلون من وسط الجدران
وهكذا نجدهم أمامنا ومعنا : وجها لوجه
لكنـهم لا يقبلون علينا
ولا يستمرون بيننا وقتا طويلا
إلا إذا رحبنا جيدا بهم
وأشعرناهم بأننا كنا بانتظارهم
حينئذ يجلسون
ويتركوننا نتحدث إليهم
ونشكو لـهم
ونذرف دموعنا الساخنة على صدورهم

***

ومن الغريب
أنـهم لا يشعرون بالحزن مثلنا
بل إن وجوههم تكتسى بحالة من الرضا
ليست مثل التى توجد على وجوهنا
ويبدو أنـهم يعتبرون أن ما حدث لـهم

أمر طبيعى كان ينبغى أن يحدث ..
لذلك فإنه لا يستحق
كل هذا الحزن الشديد
الذى يغمرنا نحن بعد فراقهم
***
والملاحظ .. أنهم لا يتحدثون كثيرا ولا قليلا
عن وجودهم هناك
إما لأنهم راضون به تماما
أو لأنهم يدركون جيدا
أننا لن نقدر على تصور شىء منه !
أما نحن ..
فلا نكاد نتوقف عن الحديث إليهم
ونشكو من أدق التفاصيل فى حياتنا المضطربة
وكلما حاولنا الإمساك بثيابهم الشفافة
أو الضغط على أصابعهم الرقيقة
تخلصوا من برفق
وربتوا علينا فى حنان بالغ
تماما كما يحنو الكبار
على أطفال صغار !
***
إن جلوسهم معنا ،
وإصغاءهم لنا
يجعلنا نحسب أنهم سوف يبقون بيننا
لكننا نفاجأ بأنهم يتأهبون للذهاب ..
وبينما نحاول التشبث بهم
نجد النوم قد طار من أعيننا

وحينما نصحو
لا نجدهم قد رحلوا فقط عنا
وإنما تركوا فى حلوقنا مرارة مركزة
وفى صدورنا حسرة لا تنمحى !
ولكم نحاول أن نسترجع كل ما ما قالوه لنا
أو حتى شيئا قليلا منه
لكنه يكون قد تلاشى ..
ويظل يتلاشى مثل السحابات الخفيفة البيضاء
التى تدفعها الريح
فى اتجاهات متباعدة!

قصص شعريه

حكاية عائلة مصرية

مات الجد
بعده بعام واحد .. ماتت الجدة
اكتمل بياض شعر رأس الأب !
ثم لم تلبث الأم أن مرضت
فاختفت البسمة تماما من البيت
ورغم حرص الجميع على شفاء الأم ،
فقد غيّبها الموتُ فى إحدى ليالى الصيف
خيم الحزن الشديد على الأب والولد والبنتين
تقاعد الأب أخيرًا عن العمل
وتناقص إلى حد كبير دَخْلُ الأسرة
تعثر الابن فى دراسته فهجرها ،
وأصر على السفر للعمل بالخارج
ظل يرسل للأسرة فى كل شهر مبلغا من المال
وفجأة قطعه ، وأخبرهم أنه اضطر للزواج !
تدهورت صحة الأب كثيرا ،
ولم يعد يُمسك بزمام الأمور
البنتان تواعدان شابين
أحدهما ميكانيكى سيارات ،
والآخر ما يزال طالبا فى الجامعة
أصبح الأب يرى ، ويسكت ..
كان من قبل يثور ، ويضرب !
ذات يوم .. أحضرت البنت الكبرى حبيبها ،
ليخطبها من أبيها
تزوجت وأنجبت بعد سبعة شهور فقط
صار يحتفى بقدومها مع طفلها إلى المنزل

بعد فترة .. علم أن ابنته الصغرى
قد تزوجت عرفيا !!
سقط مريضا ، وابتلع الألم
لكنها جاءت إليه باكية واعتذرت فسامحها
طلب منها أن تُحضر زوجها إلى المنزل
ليعيش الثلاثة معا ..
عندما أنجبت طفلة جميلة ،
أخذها بين ذراعيْه بحنان بالغ ، وقال :
= إنها تشبه جدتها كثيرًا !
زوجُ ابنته ولد جاد ، وهو يذاكر باجتهاد
حاول أكثر من مرة أن يكلمه ،
لكى يُحوّل الزواج من عرفى إلى شرعى
لكن الفرصة لم تكن تواتيه
كما أنه كان أضعف من أن يلح !
ذات يوم ، صلى الفجر ،
وتمدد كعادته على السرير
وعندما ذهبوا يدعونه للإفطار ..
وجدوه ميتا ..

القريـــة النـــائية

لم يكن يتخيل على الإطلاق

أن تلك القرية النائية ،

التى عين فى الوحدة الطبية بها

سوف تشكل جزءاً أساسياً من حياته .

فى الشهور الأولى . .

رأى كل شئ حوله يبعث على القرف والاشمئزاز ،

حتى أنه لعن اليوم الذى تفوق فيه ،

والتحق بكلية الطب .

أين الآمال الكبرى فى عيادة فسيحة بوسط البلد ،

والتردد مع زملائه على النادى ،

وتكوين صداقات وعلاقات مع أرقى عائلات العاصمة ؟

تبخرت كلها

وهو يجلس فى تلك العيادة الحقيرة ،

التى توجد فى سقفها مروحة لا تعمل ،

ويقف على بابها تمرجى بجلباب أزرق ،

وطاقية صوف !

أما المترددات على العيادة فكلهن بلا استثناء

سيدات عجائز،

أو متوسطات العمر بكروش منتفخة ،

ورائحة ممزوجة بالطين وروث البهائم
وذات يوم . .

دخلت مع خالتها فتاة فى حوالى العشرين

عيون خضراء واسعة ،

وضفيرتان تتدلى إحداهما على صدرها ،

والأخرى على ظهرها حتى أسفل الوسط .

لم يستطع ان يرفع عينه عنها طوال الوقت

أما هى فكانت تبتسم بهدوء ،

وتنظر إليه بثبات .

فور خروجها نادى على التمرجى ،

وراح يمطره بالأسئلة عنها . .

– آه البنت أم عينين خضره

بنت عم فاضل ،

صاحب الطاحونة ،

ناس طيبين وفى حالهم .

ولهم ولد سافر إلى العراق منذ عدة سنوات

وانقطعت أخباره

كان يريد أن يلتهم عنها كل خبر

راح يتلذذ بكل التفصيلات ،

التى لم يخرجها التمرجى الملعون إلا بصعوبة

***

فى الزيارة التالية لخالتها سألها عنها ؟

ولماذا لم تحضر معها ؟

ثم تجرأ ، وسأل :

ـ هل هى مخطوبة ؟

ـ وإذا تقدم هل يوجد مانع ؟

كان الطريق خالياً ..

ولم تمض عدة أيام

حتى كان يجلس إلى جوارها فى كوشة الفرح . .

ولم يعد يكره القرية التى عين فيها .

حدث فى حديقة الحيوان

كنت متجها لزيارة أحد اصدقائى
وعندما توقف الأوتوبيس
فى اشارة مرور طويلة ،
أمام حديقة الحيوان
ترددت لفترة ، ثم قررت النزول
اتجهت لشباك التذاكر
وقطعت تذكرة
ودخلت

كان يوم إجازه
والحديقة مزدحمة بالزائرين
وأكثرهم من الأطفال
تجولت قليلاً بين بيت الفيل ،
وجبلاية القرود
ولم أتوقف أمام الاسد طويلا..
لأننى لا أحب ان أرى انكسار هذا الوحش الكاسر
أحسست بالتعب
فذهبت إلى مسطح أخضر
تجلس فيه بعض العائلات
وحولها الأطفال يلعبون بالكرة

جلست بجوار عائلة
الأب ، والأم ، وثلاث بنات

كانوا يراقبون ابنـهم ، وهو يلعب
ثم نشروا مائدتهم على العشب
وأخرجوا أكياس الطعام
وراحوا يتقاسمونـها
فوجئت بابنتهم الصغرى
تحمل لى بعض السندويتشات على طبق ورقى
شكرتها بشدة ، لكنها أصرت على تركه
وعادت لأسرتها
كنت بالفعل جائعا ، فأكلت
السندويتشات لذيذة جدا
وكان علىّ أن أذهب لأشكر الأب
سألنى : هل أنت وحدك
قلت : نعم
دعانى للعب دور كوتشينه
قبلت
التف الجميع حولنا ، بما فيهم الابن
ورحنا نضحك ، ونتحدث
عن عملى ، وبلدى ، ثم عن حياتى كلها..
الأسرة طيبة جدا ، ومحافظة
والبنات مؤدبات ، وجميلات
قالوا لى : إن الكبرى مخطوبة
وستتزوج قريبا فى مدينة أخرى
أما الوسطى..
فكانت تنظر فى الأرض
حين أنظر إليها..
عاودت شكر الأب والأم على السندويتشات

قالت الأم بحنان بالغ:

-على ماذا يا بنى

هذا شىء بسيط ،

وأنت فيما يبدو ابن حلال

وتستاهل كل خير..

أحسست أن أمى هى التى تتحدث

وتمنيت لو ألقى بنفسى فى حضنها

أعطيت الأب عنوانى ، ورقم تليفونى

لم تمض سوى أيام قليلة

حتى زرتهم فى منزلهم

رحبوا بى بشدة

كأنهم يعرفوننى من زمن طويل..

سألنى الأب:

-هل نحضر لك لقمة ،

قبل أن نشرب الشاى معا ؟

وجدتنى أقوله له:

-أنا جائع بالفعل

لكن يشرفنى يا عمى

أن أطلب يد ابنتك الوسطى!

ابتسم ، ولم يرد

ثم قام على الفور ، واتجه إلى المطبخ

سمعت زغرودة الأم

تملأ المكان بفرحة..

كنت فى أشد الحاجة لسماعها.

ريبورتاج الحب الأول

فى غمرة احداث الجريدة
ورئيس التحرير مشغول للغاية
فى تجهيز العدد الاسبوعى
وتليفونات المسئولين تلاحقه
للاطمئنان حول نشر بعض الموضوعات ،
وحذف بعضها..
دخل عليه المحرر الجديد
وكان قد عينه حديثا
بناء على توصية وزير سابق
وعندما رفع رأسه ليسمع منه
بعد ا ن خلع نظارته
وجده يقول له بكل ثقة:
- هل تسمح لى ياريس
ان اقوم بتحقيق
مع كبار الشخصيات فى المجتمع
حول حبهم الاول ؟
لم يصدق الرجل ما يسمع
وعاد فوضع النظارة على عينيه
ليتامل الشاب من جديد
- ماذا تقول ؟
- اقول اننى اريد ان اقوم بعد اذنك
بتحقيق صحفى موسع
حول الحب الاول..

قاطعه متهكما:
- وكيف جاءتك هذه الفكرة العبقرية ؟
- لان الحب الاول ياريس ،
كما جاء فى الانترنت ،
هو اهم حدث يقع فى مرحلة المراهقة
ويظل يؤثر على فكر الانسان وسلوكه
طوال مراحل العمر.
- يعنى حضرتك ترى
انه يؤثر علينا الان
ونحن نقوم بهذا العمل ؟!
- طبعا يافندم.
امسك رئيس التحرير نفسه
من الانفجار فى الشاب
وتذكر توصية قريبه الوزير
وقال له بهدوء:
- طيب ياحبيبى..
دعنى الان وسوف نتحدث عن ذلك
فيما بعد.
خرج الشاب مطمئنا
وعاد رئيس التحرير للانهماك فى عمله
وحين عاد بعد منتصف الليل الى منزله
كانت زوجته قد تركت له عشاءه المعتاد على السفرة
جلس وحده لياكل..
وراح يستعيد ما حدث مع المحرر الشاب
وابتسم من تفاهة الموضوع
وتهور المحررين الجدد

لكنه حين القى نظرة على صورة زفافه المعلقة
لم يستطع ان يبعد من ذاكرته
طيفا عزيزا عليه:
سعاد بنت الجيران
بعينيها الواسعتين
وضفيرتها المكتنزة
وضحكاتها التى لا تنسى..
ان زوجته تشبهها الى حد كبير..
بل ان كل النساء اللاتى احبهن
كن نسخا منها..
وحتى سكرتيرته الحالية
لها نفس عينيها
ولعل هذا هو السبب الكامن
الذى جعله يتجاوز عن الخبرة
ويختارها من بين جميع المتقدمات!

أبناء البيت الكبير

كانت امراض الشيخوخة
قد زحفت بالفعل على الحاج سرحان
ابن الثمانين ، وتاجر الشموع بالغورية
أما روحه فقد ضعفت كثيرا
نتيجة سنوات العمل المتواصلة
والتى لم يأخذ فيها أجازة ليوم واحد

**

كان الرجل كثير الأبناء
سبعة ذكور ، وأربع بنات
وقد استأجر لهذا بيتا كبيرا
فى حى الدرب الأحمر العتيق
وكان إذا أراد ان يزوج أحد ابنائه أو بناته
يخصص له غرفة مستقلة
لكن العائلة كلها كانت تجتمع على الطعام:
الأب والأبناء على طبلية ،
والحاجة فاطمة والبنات على طبلية أخرى
والجميل فى الموضوع
أن أحدا لم يكن يشكو أو يتذمر
وحين عرض أحدهم على الوالد
أن يسمح له بالمساهمة فى مصاريف البيت
نهره بشدة ، واعتبر ذلك إهانة بالغة !

**

ومع مرور الوقت ، وتغير الأحوال
أخذ العائد من تجارة الشموع يتراجع
لكن الحال ظل فى البيت الكبير كما هو ..
ويرجع الفضل فى ذلك للحاجة فاطمة
فقد كانت تمسك بزمام الأمور
وتجيد توزيع الدخل مهما قل ..
وتحسم بعقلها الراجح أى أزمة تتعقد
والأهم أنها لم تكن تثقل على زوجها
بهموم المعيشة ، ومشاكل الأولاد

**

وذات ليلة باردة ، جاء الموت
فانتزع الحاجة فاطمة من هذا البيت الكبير
ولم يستطع الحاج سرحان
أن يعيش بعدها سوى عدة شهور
حتى لحق بها ..
ويقال إن كل تجار الغورية مشوا فى جنازته
فقد كان تاجرا أمينا وشريفا
وعقب انتهاء مراسم العزاء
كان على أبنائه أن يعقدوا فى منتصف الليل
جلسة طارئة
ليبحثوا أحوالهم ، ويختاروا من يقودهم ؟
وبعد أخذ ورد ، وتجاذب وصلح..
وافقوا على أن يتولى الأكبر أمور البيت
رغم طيبته الواضحة ،
وعدم تمكنه تماما من السيطرة

**

لذلك لم تمض فترة طويلة

حتى بدأ الشقاق والنزاع

وعلت أصوات لم تكن تعلو من قبل

وتدخل فى المعمعة

زوجات الأبناء وأزواج البنات

وراح البعض يطالب بالاستقلال بنفسه

سواء فى الدخل أو المصروف

وكان البعض حاد المزاج

فصار لا يكلم إخوته

وإذا سلموا عليه .. لم يرد السلام!

**

وهكذا تغيرت الروح التى كانت سائدة

فى البيت الكبير

فبعد أن كانت السماحة والقناعة والمودة

هى التى تسرى بين الجميع

حل محلها الحقد والحسد والشراهة

وصار كل منهم لا يتحمل كلمة

أو حتى مجرد نظرة من أخيه

ثم جاءت الضربة القاضية :

إعلان رسمى بضرورة إخلاء البيت

فى أقرب وقت

لأنه آيل للسقوط ..

وعلى الفور

حمل كل منهم أغراضه

وكراكيبه..

وانتقل إلى شقة أو غرفة صغيرة

تقع فى أحياء مختلفة ، ومتباعدة
ولم يعودوا يتقابلون إلا صدفة
أو حين يقع لأحدهم حادث
أو أحيانا ـ وهذا قليل جدا ـ
فى زفاف أحد أبنائه !

ليـلة شتــاء

هبطت درجة الحرارة

إلى ما يقرب من خمس درجات

واستمر المطر فى الهطول

أغلق على نفسه باب الغرفة وشباكها

وعندئذ بدأت دقات ساعة الحائط فى الارتفاع

حتى صارت هى الصوت الوحيد الذى يسمعه

**

استلقى على السرير

وتدثر بأكثر من بطانية صوف

حاول أن يتسلى بمشاهدة شىء فى التلفزيون

وجد البرامج الحوارية مملة ،

والأفلام مكررة

**

سحب كتابا لم يكن قد أنهى قراءته

لكن أصابعة المتجمدة

لم تقو على تقليب صفحاته

أعاده إلى موضعه

**

أمسك بأجندة التليفونات

محاولا التقاط رقم صديق

يثرثر معه عن هذا البرد الفظيع

أو يتبادل معه بعض الأخبار والذكريات

لكنه وجد الأرقام شبه باهتة
وكلما توقف عند اسم بعينه
تذكر له أحد المواقف السخيفة
التى لا يصدر مثلها من صديق حقيقى

**

ما هذه البرودة التى تسرى فى عظامه ؟
ولماذا لا يحد منها هذا الكم من الصوف ،
الذى يحيط بجسده ؟
وهل يمكن فى هذا الجو أن يأتى النوم ؟

**

النوم..
لا مجال له على الاطلاق
وقد صارت زخات المطر المتتالية
تصك خشب الشباك
كما لو كانت ذئبا جائعا
يحاول أن يقتحمه بالقوة
أما دقات ساعة الحائط
فهى مستمرة فى ضرباتها المنتظمة ،
والرتيبة ،
والتى تحولت مع مرور الوقت
إلى ما يشبه دقات طبلة
فى مارش عسكرى

**

لماذا لا يذهب إلى المطبخ
ويقوم بتحضير وجبة ساخنة
لعلها تبث بعض الحرارة فى جسده ؟

لا شيء في الثلاجة سوى عدة بيضات
وعلى الرف زجاجة زيت
أما الخبز فقد جف في كيسه
لا يهم..
وليذهب النوم إلى الجحيم!
**
نجحت المحاولة
وساعدت نار البوتاجاز على تدفئة المكان قليلا
لكن الأهم
أن تناول تلك الوجبة أشاع الدفء في معدته ،
ومنها إلى أطرافه
وحين شرب كوبا ساخنا من الشاي
تأكد من أن النوم قد طار من عينيه تماما
**
جلس على المكتب
وفتح الكمبيوتر
هناك بعض الرسائل غير الهامة
وبعض الصور التي يتباهى بها أصحابها
لكنه سرعان ما شعر بالملل ، فأغلقه
عاد إلى السرير
البطاطين الصوف باردة جدا
وهي على نفس مستوى برودة قدميه
ماذا سيفعل الآن ؟
لا شيء
وتساءل:
ماذا لو كانت له الآن رفيقة ؟

يحدثها ، وتحدثه

ويتقاسم معها مقاومة هذا الشتاء القارص ؟

لكنه كان المسئول الرئيسى

عن فراق كل من عرفهن

رغم أن فلانة كانت أفضل..

وفلانة كانت أجمل..

وفلانة كنت أطيب..

أخيرا ذهبن كلهن ،

وبقى هو وحده يعانى البرد ،

إنها فيما يبدو عدالة السماء!

**

بعد بزوغ الفجر بأكثر من ساعة

وجد رأسه يثقل

وبصره يضعف

وقواه تخور

وفجأة استغرق فى نوم عميق

عميق جدا

لم يصح منه إلا مع عصر اليوم التالى..

هابيل وقابيل

قابيل ـ إلى أين أنت ذاهب ، ياهابيل ؟

هابيل ـ إالى أعلى التلة ، التى بجوار النـهر

قابيل ـ وما هذا الخروف الذى تسحبه ؟

هابيل ـ إنـه قربان

قابيل ـ قربان ، لمن ؟

هابيل ـ للخالق ، جل وعلا !

قابيل ـ ومن طلب منك ذلك ؟

هابيل ـ لا أحد

قابيل ـ إذن لماذا تفعله ؟

هابيل ـ من قبيل الشكر

قابيل ـ الشكر على ماذا ؟

هابيل ـ على ما أنعم به على

فقد بارك لى فى رزقى

ووهبنى الزوجة الصالحة

وجعل حياتى راضية مرضية

قابيل ـ ولماذا لا أفعل أنا نفس الشىء ؟

ألسنا إخوة ، وأنت لا تفضلنى فى شىء ؟ !

هابيل ـ حسنا ، يا أخى

ومن حقك أن تفعل

وعسى الله أن يتقبل منا جميعا

***

وهنا أسرع قابيل إلى مزرعته

وتخير من بين أغنامه
كبشا أضخم من خروف أخيه
وعندما وصل إلى نفس التلة
وجد أن أخاه قد ذبح خروفه فوق صخرة
وتركه ، ورجع إلى بيته
قام قابيل بذبح كبشه
ووضعه فوق الصخرة ،
بعد أن أزاح خروف أخيه على الأرض !

***

فى صباح اليوم التالى
عاد كل من الأخوين إلى التلة
فلم يعثر هابيل لخروفه على أثر
فعلم أن الله قد تقبله منه
أما قابيل فوجد الكبش الضخم فى مكانه
دون أن يمسه وحش مفترس
أو طير كاسر
فأدرك على الفور أن الله لم يقبل قربانه
بينما تقبل قربان أخيه

***

أكلت الغيرة قلب قابيل
وصمم على ضرورة التخلص من أخيه
الذى فضله الله عليه
ولم يدرك الشقى
أن الله يؤتى فضله لمن يشاء
وخلف إحدى الأشجار المكتنزة
التى تقع فى طريق عودة أخيه

ظل مختبئا خلفها ، وفأسه فى يده
وحين أصبح هابيل على بعد خطوات منه
انقض عليه بكل حقد وجسارة
وحطم بالفأس رأسه
فتناثر دمه على الأرض

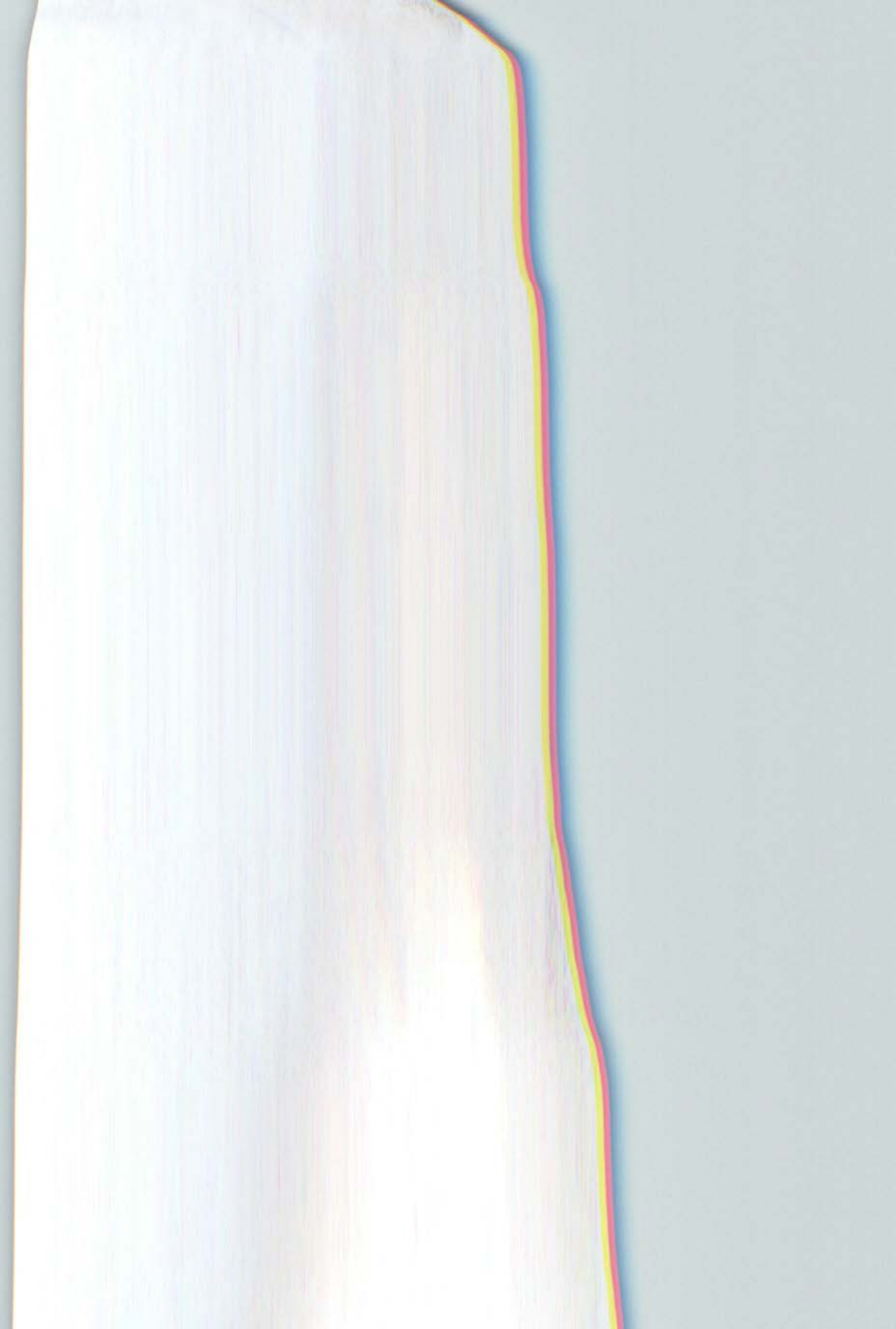
***

تفاجأ قابيل من رؤية الدم
ومن سقوط أخيه جثة هامدة
وبدأ يشعر بارتباك شديد
خوفا من ان يجيء أحد أفراد أسرته
ويشاهد ما فعله بأخيه !
إذن ماذا يفعل
فى تلك الجريمة التى كانت
أول جريمة قتل على ظهر الأرض ؟

***

وهنا بعث الله بغراب
وجد غرابا آخر قد مات
فراح يحفر فى التراب
حتى واراه ..
أخذ قابيل نفس الفكرة
وقام بتنفيذها مع جثة أخيه
فحفر لها حفرة فى الأرض
وألقاها فيها
ثم أهال عليها التراب حتى اختفت تماما

***



رجع قابيل إلى بيته
كان مضطربا للغاية ، ومحطم الأعصاب
وعندما لاحظت زوجته ارتباكه
سألته عن السبب
فاعترف لها بجريمته
لكنه شدد عليها ألا تخبر أحدا
وخاصة أبويه : آدم وحواء
حتى لا يحل عليه غضبهما
لكن الجريمة ما لبثت أن عرفت بكل تفاصيلها
ولم تقتصر على غضب الأسرة فقط
بل شملت لعنة الإنسانية كلها!

حديث عصفورين

ـ هل رأيت الكوبرى الجديد
الذى أقاموه على الترعة ؟
ـ لمحته يسرعة وأنا عائد بالأمس
ـ يقال إنهم سيقيمون بجانبه سوق خضار
ـ وهذا يعنى أنه سيكون مزدحما
ـ فقط فى أيام السوق
أما فى باقى الأيام
فسوف يمكننا أن نلتقط منه الكثير
ـ لكن ماذا سيفيدنا من بقايا الخضار ؟
نحن بحاجة إلى الحبوب
ـ الحبوب لم تعد توجد إلا فى أطراف الحقول
أو على الطريق
بعد أن ينقلوا حزم القمح والشعير
ـ المشكلة أن الغربان
ما عادت تترك لنا شيئا نلتقطه
ـ لكننى سمعت أن المبيدات
تقضى على الكثير منها
ـ ياريت تقضى عليها كلها
فهى طيور شرهة جدا ، ومؤذية
ولا تهتم إلا بمصلحتها
لكن .. قل لى :
كيف الحال مع عروستك الصغيرة ؟

ـ هى بخير
لكنها أصبحت تتطلب الكثير
ـ ماذا ، بعد أن بنيت لها عشا كبيرا ؟!
ـ إنها كما تعلم عصفورة شابة
ومثل كل جيلها
تريد أن أصحبها فى نزهات بعيدة
ـ ومتى يحين موعد بيضها ؟
ـ ربما بعد عشرة أيام
ـ حسنا .. سوف تفرح كثيرا بالبيض
وتحب أن تحتضنه
وساعتها تريحك
ـ بالعكس .. أنا مرتاح معها جدا
فهى عصفورة جميلة وخفيفة الدم
ولا تتوقف عن الزقزقة
ـ لا حرمك الله منها
ومتعكما بالسعادة
ورزقكما بالعصافير الكثيرة
التى تملأ عليكما العش
ـ عقبالك أنت أيضا
وبالمناسبة .. لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟
ـ الواقع أننى ما زلت أبحث..
والمشكلة أن متطلباتى صعبة قليلا
ـ لا تتشدد يا رجل !
فالعصفورات الجميلات كثيرات
وأى واحدة تتمنى عصفورا مثلك
ـ كذلك عندى مشكلة العش

ـ هل اخترته ، ام ما زلت تبحث ؟

ـ كانت عينى على عمود الكهرباء

لكننى فوجئت بسقوطه فى حادث

ـ ولماذا لا تقيمه مثلى فى شجرة ؟

ـ أخشى أن يقرروا قطعها

ـ وما رأيك فى أعلى الشرفة التى هناك ؟

ـ سيكون فى متناول أيدى الضيوف ،

وليس بعيدا عن شقاوة الأطفال

ـ عموما ، إذا ظهر أمامى عش مناسب

فسوف أحجزه لك

ـ لا أدرى كيف أشكرك ؟

ـ لا تقل هذا ، فأنت مثل ابنى تماما

ـ ربنا يمتعك بالصحة ،

ويرزقك دائما بحبات القمح والشعير !

المحتوى